بسم الله الرحمن الرحيم

أثر عبد الجليل الطباطبائى فى نهضة الشعر بالخليج العربى

١١٩٠ - ١٢٧٠ هـ/١٧٧٦ - ١٨٥٣ م

د . على عبد الخالق على

(١)

فى حاضرة البصرة بالعراق ، ومن أسرة كريمة الشرف حظى أهلها بموهبة الشعر وحب العلم ، ولد (عبد الجليل الطباطبائى) وتقلب فى أصول ترفع نسبه إلى (الحُسين بن على) رضى الله عنهما[١] ؛ فجده وهو (السيد خليل بن محمد صَفىّ الدين بَنْبَه) ينتهى بنسبه إلى(الحسين بن على) . وكثيرًا ما رفعه هذا النسب ، وقدّمه على غيره فى حب الأشراف من (آل البيت) والتعلّق بمنزلتهم .

خيرُ المدائحِ ما أهداه ذو حَسَبٍ حُر لهُ المدحُ يُهدى غيرُ منفصل

---

(١) ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان ١/١١٢ . وما ذكره ابن خلكان من أنه ولد ونشأ بالبصرة أدق مما قاله مدير دار الكتب القطرية فى مقدمة الديوان من أنه ولد فى قرية الزبارة من أعمال قطر ؛ لكنه عاش فيها فترة ، وتزوج منها كما يتضح من شعره .

إنى لمن مَعْشرٍ غرٌّ غَطارِفَةٍ من كلِّ ثقفٍ جوادٍ بالكُماةِ مُلى[1]

وهى القصيدة التى رفعها إلى الشريف (محمد بن عُون) شريف مكة سنة ١٢٤٩هـ وأشاد فيها بانتصاره على أهل (سُبيع) . ويقول فى موضع آخر (ص٣٥) :

على أننى من معشر قد تسنموا ذرا العز فى أكنافهم وترأسوا
أبا الضيمَ منهم كلُّ قرم سميدع لهم كل وال لان من جيشهم قسوا

وكثرُ افتخاره بأصله وبنفسه كما فى (بائيته) (للكَ اللَّهُ إنى من فراق الحبائِبِ)[2] :

تظن بأنى فى الفَهاهَةِ باقلٌ أو البُهمُ لى فيها عظيمُ تناسبِ
كأنّى لم أرِثْ يومًا فصاحةَ (أحمد) وليسَ الذَّكا لي من (لؤي بن غالب)

وهى تمثل آلام شوقه لأهله وحنينه للزِّيارة[3] ، وأثر البعد عنهم فى نفسه

---

(١) ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائى ١٣٦ - القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - المطبعة السلفية . واللامية على البحر البسيط (مستفعلن فاعلن) ٤ مرات وتقع فى اثنين وثمانين بيتًا . وطبع ديوانه لأول مرة فى الهند سنة))١٣ هـ ثم طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٥ هـ ، وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى دراسته ، ثم طبع ديوانه طبعة ثالثة فى دمشق سنة ١٩٦٣ م .

(٢) المصدر السابق نفسه ٢ - والقصيدة على البحر الطويل ، وتقع فى سبعة وثمانين بيتًا ، وهى على روى ووزن (بائية) النابغة الذبيانى (لينى لهم - يا أميمة - ناصب) وانظر ص ٣٥ من الديوان .

(٣) على الساحل الغربى فى جنوب العريش لها شهرة تجارية وسياسية . انتعشت فيها تجارة اللؤلؤ ، وحُصنت القلاع ، وكانت مهبط طلاب العلم ، ومركزًا سياسيًا من ١٧٦٦ - ١٨٨١ حين نزلها آل خليفة حتى فتحوا البحرين ١٧٨٣ فانتقلوا عنها ، وتعرضت لهجوم الفرس سنة ١٧٨٣ ولهجوم سعيد بن سلطان سنة ١٨١١ . راجع مصطفى الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ١١١ - ١١٢ ، عبد العزيز المنصور : التطور السياسى لقطر ٣٥ - ٣٦ .

بعد أن كان قد رغب فى الإقامة بها . ولمّا عاد للبصرة مرة أخرى لتعهد أملاكه هناك وزيارة وطنه الأول - ترك فى الزبارة أهله وأولاده ، إلا أن روحه ظلت متعلقة بهم :

هَوايَ (زِبارى) ولستُ بكاتمٍ هوايَ ولا مُصغٍ للاحٍ وعَائب
أتوقُ إذا هَبَّ الجَنوبُ لأنني أشُم الغوالي من مَهبِّ الحبائب

وكان قد حال دون رجوعه للزبارة استيلاء (سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد) إمام عمان[1] على معظم منطقة الخليج . وكان (الطباطبائي) معاصرًا لتلك الأحداث التاريخية التى تعرضت لها (الزبارة) سنة ١٨٠٢م ، وسِنه إذ ذاك - سبع وعشرون سنة .

وفي بداية حياته بالبصرة تلقى مبادئ العلوم وأصول اللغة والثقافة في مجلس والده ؛ فتشرّب منه سَمْت العلماء وطريقتهم . وكانت البيئة الثقافية فى البصرة تحرص على أن يُنَشّأ الصغار على حفظ القرآن الكريم ، ودراسة

---

(١) تعلل (سلطان بن أحمد بن سعيد ١٧٩٢ - ١٨٠٤م) لفتح البحرين بأن مشايخ (العتوب) فى هذه الجزر رفضوا دفع الجزية له التى زعم أنها حق على كل السفن الداخلة للخليج . وكان يهدف إلى السيطرة على أسواق اللؤلؤ في الخليج ؛ غير أن (العتوب) مالوا للإيرانيين ؛ فاستولى (سلطان ؛ على جزيرة خارج سنة ١٨٠٠ ، وعين ابنه (سالمًا) على البحرين ، ومقر حصنه (عرضي) فى جزيرة (المحمرة) ؛ غير أنه فشل فى الاستيلاء على البحرين بمساعدة (الإيرانيين) إلا أن (الوهابيين) أجبروه على الرحيل . وكانت (الزبارة) قد شهدت أحداث احتلال (سلطان بن أحمد) ١٢١٧هـ /١٨٠٢م . ثم حاول (سعيد بن سلطان ١٨٠٧ - ١٨٥٦) كهدف أبيه الاستيلاء على (البحرين) في ثلاث حملات متتابعة أعوام (١٨١١ ، ١٨١٦ ، ١٨٢٨م) الأولى على (الزبارة) و(قطر) ودمرت (الزبارة) تدميرًا كاملًا والثانية ضد (العتوب) ، وفى الثالثة فشل فى الاستيلاء على البحرين وعقد صلحًا بينه وبين (العتوب) .

انظر : (ج .ج) دليل الخليج ، القسم التاريخى ٢ /٦٦٤ ، ٦٩٧ - ٦٩٩ .

اللغة والبلاغة والحديث والفقه شأن كل الأمصار الإسلامية . ثم (حُبِّبَ) إليه تذوّق الشعر وحفظ الكثير منه ، ومن ثم غلبت روح الثقافة العربية على أغراضه الشعرية حتى جاءت أكثر قصائده أثرًا لهذا المنحى ؛ فالاتجاه الإسلامي المتعمق في مجالات التراث وقديم الشعر طبعت قصائده بالقيم التربوية والأخلاقية والإصلاحية ، كما جاءت ثقافته أثرًا لقراءاته في دواوين الشعراء القدامى .

وأخذ (الطباطبائي) عن علماء كثيرين ، كما التقى حوله تلامذة عديدون ؛ فممَّن أخذ عنهم العلم الشيخ (محمد بن فيروز[1]) ، (وممن) « تتلمذ على يديه الشيخ (عبد الله بن أحمد بن عتيق الأحسائى) . وبعض أراجيزه الشعرية تذكرُ طرفًا من هذه العلاقة ؛ ففي أرجوزة له سؤال توجه به للشيخ (محمد بن فيروز) ليجيز له الحديث عنه والنقل والفُتيا ، وكان (ابن فيروز) يقيم في الزبارة حينئذ : —

فجدُ عليّ — سَيِّدى — بكل ما رويته عن السّراة العلما
وكل حزب ودعاء صُنِّفا أو كان عن (طه النبى المصطفى)
وكل ما ألّفتَ من رسالة حاكيةٍ في حسنِها الغزالة[2]

فأجابه الشيخ (الفيروز) فى (أرجوزة) له سنة ١٢١١هـ يجيزه فيها نقل جميع مروياته : —

---

(١) هو عالم الإحساء وفقيهها ، تولى القضاء في الكويت ، وتوفى بالبصرة (١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م) .
انظر : عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ٥٧ .

(٢) ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائي ٢٩٥ — ٢٩٧ . والأرجوزة قصيدة على بحر الرجز تختلف عن سائر القصائد التقليدية ببناء كل بيت — غالبًا — على قافية واحدة في الصدر والعجز ، ويأتي التالي على قافية غيرها في صدره وعجزه وهكذا ، ويسهل نظم العلوم والفنون بها لكثرة التسامح في البحر الرجز وفي قافيته وفي التضمين .

هذا ؛ وإني ما أراد الفاضل ... مني بتنجيز له ممتثل
مبادرًا أقول : قد أجزتُ له ... نقل الذي أجيز أن أنقله
وأن يكونَ روايًا جميع ما ... أرويه عن جميع ما تقدّمَا
وهكذا أيضًا بكلٍّ ما لي ... من كُلّ منثورٍ ، ونظمِ حالي[1]

وهي (أرجوزة) تحمل من وصايا الشيخ لفتاه ما يكشف مدى العلاقة العلمية بينهما ، واحتفاء (ابن فيروز) به ، واعتزازه فيه وتقديره لحسن تقبله للعلم ، وتقلّيه عنه ؛ حتى صار (الطباطبائي) ثقةً يروي عن شيخه . ويمتد به حظ العلم وافرًا فيتتلمذ عليه نفر يثقون في علمه ؛ أمثال (عبد الله بن أحمد بن عتيق) الأحسائي فقد أجاز له (الطباطبائي) أن يروي عنه فمدحه (ابن عتيق) في أرجوزة قال فيها : —

فلم يُصب حَدْسيَ في هذا الزمن ... مِن مُتْقِنٍ خِرّيتٍ هَدي مؤتمن
غير التقيّ النِّقْرس النّحرير ... صدرِ المحافِل حُقّ للتصدير
(عبد الجليل السيد ابن السيد ابن ... السيد ابن السيد ابن السيد[2])

ومن غريب ما يروى عنه مما يشير إلى أثر ثقافته اللغوّية والفقهية والعروضية ما يقوله : —

نأت دار من أهوى وعزّ مزارها ... ومن دونها قد حال قرعُ الكتائب
وسُد طريقُ القرب منها بخمسة ... وخمسين جَلًا من عظام المراكب
ملاء جموعًا للعدا كل جحفل ... يدك الرواسي من زئير المقانب
فلا (خبر) بـ (الجزم) (يرفع) عنهمُ ... و(حالي) في (خفض) من الشوق (ناصب)

---

(١) المصدر السابق نفسه ٣٠١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ٣٠٤ — ٣٠٦ ؛ والخريت : الحاذق الماهر جمعها خراريت ، والنقرس : الدليل الحاذق ، والنحرير : العالم المتمكن .

(طويل) اغتراب (وافر) الشوق كامل الـ

ـغرام، وحبي ليس بـ(المتقـارب)

لقد أُنزلت آياتُ حبي بمحكـم

من القلب لم تنسخ بوحي المعاطب[1]

ومثل هذه التَّوريات كانت تكثر في زمانه إما لإظهار ثقافة لغوية وعروضية ، أو للتّندُّر بالنحاة على نحو ما تأثر به (الساعاتي[2]) :

فَدَعْني من قولِ النحاة فـإنهم

(تَعدُّوا لصرف النطق من غير لازم)

إذا أنا أحكَمْتُ المعاني (خفضتهم)

و(أرفعهم) قهرًا بقوة (جـازم[3])

وكثرت هذه الدعابات زمن الطباطبائي ، ومن لطيفه ما يروى عن (الساعاتي) كذلك مداعبا علماء النحو :

إذا ارتفعت بالنحو أعلام علمنا جعلنا جواب الشرط حذف العمائم

ليعلم من بالنصب يرفع نفسه بأن حروف الخفض غير الجوازم

ويعلم من أعياه تصريف اسمه بأنا صرفناه كصرف الدراهـم

وفى سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م جرى احتلال (الزبارة) بواسطة (سليمان بن طوق) قائد الملك (سعود بن عبد العزيز) فأغرى

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢ . والجل بفتح المعجمة : شراع السفينة .

(٢) محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتي ، وهو لقب غلب عليه ؛ لأنه مهر في إصلاح الساعات .

انظر الأستاذ عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ١ / ١٣٤ - هامش . القاهرة سنة ١٩٧٠ - دار الفكر العربى الطبعة ٨ .

(٣) العقاد (عباس محمود) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩ - القاهرة سنة ١٩٧٣ - دار نهضة مصر .

(الطباطبائي) بالتوجه معه لمقابلة الملك سعود ، وهناك طاب له المقام في حضرته حتى سنة ١٨١٠م إلى أن رغب فى الارتحال للمحرق ؛ عندما استتب الأمر فيها لآل خليفة ؛ فعمل كاتبًا لديهم ، وناب عنهم في المؤتمرات ، وفي توقيع المعاهدات مع (بريطانيا) ، وبقي معهم قرابة نصف عمره إلى أم نشب الخلاف بينهم ؛ فاتجه سنة ١٢٥٨هـ /١٨٤٢م للكويت ، وعاش فيها منذ سنة ١٢٥٩هـ /١٨٤٣م ، قرابة عشر سنوات حتى وافته منيته بها سنة ١٨٥٣م .

وكان مقامه بالكويت مرحلة استقرار وهدوء بعد حياة حافلة بالحركة والارتحال . وعلى الرغم من أن نتاجه قل في هذه الفترة إلا أن أثره على الحياة الفكرية فيها لا يُنكر ؛ فقبل مجيئه إليها لم تكن شيئًا يذكر ؛ فللعشر سنوات الأخيرة من حياته التى قضاها في الكويت أثر بارز في النشاط الفكري والثقافي[1] .

كما أن قراءاته في الأدب العربى ساعدت – إلى حد كبير – فى تعميق ثقافته ؛ وإن أسرف في التماس الموروث الشعري ومحاكاته . وكان عصره عصر ثقافة عربية خالصة تلقاها جيل عن آخر ، وهو عصر كادت سمات (الشخصية العربية) أن تتوارى فيه ، وتتلاشى خلف ركام كثير ، ووسط ظروف الحكم العثمانى الذى تحول فيه الأدب إلى حالة من الضعف والانغلاق ، والوقوف عند حد ثقافة محدودة الأثر ؛ لا تتفاعل مع الثقافات ، ولا تمتزج مع الأحداث والمواقف ؛ لقلة وسائل الاتصال ، مما عاد على الحياة الأدبية بالضعف ؛ فجاء الأدب متكلفًا جامدًا لا أثر له ولا بقاء ؛ بل تغلفه ألوان الصنعة البديعية منحصرًا فى موضوعات تقليدية وأفكار مكرورة ؛

---

(١) الزيد (خالد سعود) أدباء الكويت فى قرنين ١ / ٥٠ .

فكان العصر عصر انطماس الذات العربية وضياعها وتشتتها في خضم الحكم التركي[1] ؛

ولذا جاءت ثقافته فيضًا من حياة (الكُتّاب) وحلقات الدرس وقراءة المخطوطات ، والتنقل في الأقطار والتقرب من الأمراء ، وهي ثقافة مستمدة من عصور الضعف محدودة الاتجاه والأثر .

(٢)

أما شاعريته فقد حاول فيها مجاراة قدامى الشعراء وكان يعد المتنبي مثله الأعلى فى الشعر . ويتطلع إليه بإعجاب ، وكان يرى أن ظروف الأمة الإسلامية في عصره تشابه ما كان عليه عصر المتنبي من تفكك وضعف وتبديد للطاقات وانقسام الحكام ؛ خاصة بعد استيلاء (سلطان بن سعيد ١٧٩٢ - ١٨٠٤) على منطقة الخليج . من ثم وجَّه (الطباطبائي) كل همته في محاولة تجميع الأمة وتوحيد كلمتها . وإن دعوته للسيادة والحرية مقرونة بالحرص على التطلع نحو المجد ، ولذا فصوته يرتفع صارخًا : -

أجبْ منادي العُلا فى خوضِ غَمرتها
فالعزُّ تحت ظلالِ البيضِ والسُّمر
بالصبرِ يكتسبُ المقدامُ نصرتهُ
ويلبسُ الضد منه ثوب مُنذَعِر
لا يُدنيَنَّ لك المِقدام من أجل
يكفي حراسته مستأخر القدر
بالله أحلفُ لا أخشى به حرجًا
ومن تألّىّ بغيرِ الله في خطر

---

(١) المرجع السابق نفسه ١ / ٤٨ .

بأن لي نفس جحجاح تطالبني
سبقا إلى شرف عال بلا أشر
وهمتي في المعالي فوق مقدرتي
ولا أبالي بكون الباع في قصر

ولا شك فى أنه يمزج هنا حديث الفخر بالنفس بحديث الفخر بالأصل وبالأمة التى ينتسب إليها : -

فسلْ (ربيعة) سل (كعبا) ومنتفقا
عنهم تجد فضلهم يسمو على الزهر
توارثوا المجد عن (طه) الرسول وعن
(أبى تراب) وعن (فهر) وعن (مضر)[1]

على أن إحساسه بمشقة الغربة النفسية وبالأسى الناجم عنها إنما هو ترجمة عن أحوال الأمة وما أصابها من ترد وسقوط ، وما حل بها من اختلال فى القيم والمعايير الإنسانية . وهذه الغربة لم تكن غربة أمة تدهورت أحوالها ، وضاعت هيبتها حسب ؛ بل هى - كذلك - غربة أمجاد منهارة وآمال مُبددة ، وهى - على هذا - غربة نفس مثقلة بهمومها وبهموم الجماعة والتى ترى (ذات) الشاعر جزءا من (الجماعة) حيث كان فى البصرة مقر أجداده يتفقد أملاكه هناك : -

غريبٌ .. ولكن بين أهلي وجيرتي ومستوحش ما بين خلي وصاحبي

وقد يكون حرصه على مدح الأمراء فى المناسبات المختلفة رغبة منه فى بث روح التضامن ، وإرهاصًا بيقظة الأمة ، واستنهاضًا لها ، وإثارة للوجدان

---

(١) ديوان الطباطبائي : ١٧٦ - ١٨٢ .

الجمعى بتعدى شخوص ممدوحيه ، ومن ثم شاع شعر المديح التقليدى ؛ فمدح الملك (عبد العزيز)[١] بالميمية التى أنشدها فيه سنة ١٢٢٤هـ ومدح فيها - كذلك - ابنه الأمير سعود : -

تباركتَ يا مولى الملوكِ الأعاظِم وعزُيتَ يا مُبدى الجميلِ وراحِمى

كما مدح الأمير (سعود بن عبد العزيز) سنة ١٢٢٥هـ[٢] والأمير (فيصل بن تركى بن سعود[٣]) . ومدح أمير الأحساء (أحمد بن محمد بن سليمان السديرى) ، وكان (الطباطبائى) قد تلقى رسالة مودة من الأمير سنة ١٢٦١ مصدرة ببعض الأبيات : -

سلامٌ عليكم والديار بعيدةٌ سلامٌ محب أتعبته المفاوز
عزمتُ على المسرى لنحو جنابكم وإنى عن المسرى إليكم لعاجز

فرد الشاعر بقصيدة على البحر والروى كذلك ، وأتبع الشعر برسالة منثورة ، ومطلع القصيدَة :

بحمد إله يجمع الشمل عطفه وأيدى النوى عما يرام تحاجز
أتاني سلام ضاع بالند نشره وفاحت به عطرًا إلينا المفاوز[٤]

---

(١) عبد العزيز بن الإمام محمد بن سعود الكبير . والميمية من البحر الطويل (فعولن مفاعيلن) ٤ مرات ، وتقع فى ثمان وثمانين بيتا ، وكان (سليمان بن طوق) قد رفعها إلى الأمير (سعود بن عبد العزيز) .

(٢) مدحه بـ (رائية) طالعها :

عليك السلام أيها الملك الذي إليه ملوك العصر قد ألقت الأمرا

وتقع فى سبعة عشر بيتا على البحر الطويل .

(٣) مدحه بقصيدة (دالية) طالعها :

لرب العلا أهل الثنا وافر الحمد على نعم جلت عن الحصر والعد

وهي من البحر الطويل ، وتقع فى ستة وأربعين بيتا .

(٤) الديوان : ٢٤ - ٢٧ .

كما اتصل بـ(آل خليفة[١]) فى البحرين حينما لحق بهم ، وجرت بينه وبين الشيخ (خليفة بن سليمان آل خليفة) مفاكهة وطرائف ، فلما عزم على الحج أهداه الشيخ (خليفة بن سلمان) ناقة عمانية مسنة هزيلة ، فلم يشأ أن يركبها ، وأرسل للشيخ مداعبة منها قوله :

أتتني عجفاء الضلوع مُسنةٌ قَريبة عهدٍ بالفطامِ من الولد
علاها هزال قد بَراها كأنها من العجف عرجون قديم بلا كد
أترضى بهذا أن يُقال عطية لمثلك ما بين الحجازيّ والنجد
وقد قيلَ : لا يُعطي الكريمُ دنيةً وأنتَ الذى فى الجودِ واسطةَ العقد[٢]

ولما حدث خلاف أدى لفرقة بين (آل خليفة) كان الشاعر شاهدًا على الأحداث غير راض عنها فقال :

لفرقة القوم جرى القتال وعَمَّ فى الناسِ لها وبال
وعثرةُ الرِّجل لها إقالة وعثرةَ الرأى فلا تقال

وأرخ لهذه الواقعه :

ببعض ما جرى أتى تاريخه بوقعة البحرين ذاب مال[٣]

ومدح الحاج (محمد أفندى)[٤] معاون والى بغداد بقصيدة مطلعها :

هاج شوقى إلى الحبيب المفدَّى مذ رأيتُ الركبَ العراقىَّ يُحدى

---

(١) كانوا فى الكويت مع آل صباح ثم لما نشأ الخلاف بينهما تركوا الكويت ونزلوا الزبارة سنة ١٧٦٦ ، وكان حكام قطر آنذاك آل مسلم فخضعوا لسلطان آل مسلم ، ثم استقلّوا بالزبارة ، وبقوا بها حتى فتحوا البحرين سنة ١٧٨٣ ، فانتقلوا إليها .

(٢) الديوان : ١٢٧ .

(٣) الديوان : ١٩ .

(٤) هو ابن (على أفندي) نائب القضاء فى (كركوك) .

وانبرت مقلتي تحاكي الغوادي في انهمالٍ ، ولم أجدْ منه بردا

وبعد أن يطيل الكلام فى النسيب يتوجه بالحديث إليه :

أتُرى لى يعود ماضى الليالى وأرى ذلك الجمال تبدّى ؟
فأؤدى من شرح حالى شفاها حيث يدرى الندب الأجلُ المفدّى
ذو المعالى (محمد بن على) من أقام النوالَ فرضًا مؤدًّى[1]

وعقب القصيدة برسالة نثرية فيها وداد وحب للممدوح . كما مدح الوزير (داود باشا) وأثنى عليه خيرًا ، وشكره لمكرمة له عنده ، وهنأه على فتح (المحمرة) فقال فيه قصيدة ثناء على جميل أفعاله وحسن صنيعه .

بالعوالِى طعْنًا وبالبيض قدًا بالأعادى تنال فخرا ومجدًا
إنما العزُ تحت ظل المواضى فلها فاتخذْ طُلى الضد غمدا
فإذا رمَت أن تعيشَ عزيزا فاتخذ للعدا من الرعب جندا
كصنيع الوزير (داود) ذى الحز م أبى يوسف المليك المفدى[2]

وعندما فتحت (المحمرة) هنأه بذلك قائلًا :

بشرى بفتح نيرَّ المدد به أضاءَتْ نواحى الملك بالرشد[3]

وفى سنة ١٢٥٧هـ رفع للسلطان العثمانى (عبد المجيد) تهنئة رقيقة باسترداده الحجاز والشام من (محمد على) ، وتضمنت الرسالة قصيدة شعرية طويلة مطلعها :

بشرى بعزٍ قد أضَاءَ مُخلد شمِلتْ به الأفراحُ كلَّ موحِّد

---

(١) الديوان ص ٥٧ - ٦٢ - ٦٨ والقصيدة على البحر الخفيف (فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن) مرتين وهو من البحور ثلاثية التفاعل المزدوجة ، وتبلغ القصيدة سبعة وخمسين بيتا .

(٢) الديوان ٦٦ - ٦٨ . والقصيدة على البحر الخفيف وتبلغ واحدا وخمسين بيتا .

(٣) الديوان : ٧٠ - ٧٤ والقصيدة على البحر البسيط (مستفعلن فاعلن) ٤ مرات وتقع في واحد وثمانين بيتًا .

وفيها إشادة بانتصارات السلطان (عبد المجيد) وبحزمه ، وسيطرته على الأمور ، حيث يقول :

لا يبلغ الآمال إلا حازمٌ يستوضُح الإصدار قبل المورِدِ
متيقظًا كالعادِل الملكِ الذى تَعنُو الملوكُ لعزمه المتوقدِ
سلطاننا (عبد المجيد) ومن له الـ بأس الشديد ، وكل مجد أتلد[1]

كما مدح السيد (سعيد بن سلطان ٨٠٧ - ١٨٥٦) سلطان عمان وزنجبار بقصيدة مطلعها :

هي النفسُ والأخلاقُ للمرءِ ملبس فضافٍ مضيئ أو لبيس مدنَّس

وفيها يقول عنه :

إذا شئتَ أن تحيا سعيدًا منعما فوالِ (سعيدا) واتبعه فترأس
(سعيد بن سلطان بن أحمد) من له
مكارم عنها ألسن الحصر تخرس
هو العبقري الألمعي الذي زهتْ
به الدارُ إذ بالنجم قد زان أطلس
وقائعه فى كل حى شهيرةٌ بها فى دواوين المفاخر تدرس
فسلْ عنه أسدا فى (عمان) و(فارس)
وفى (قطر) يخبرك عنه المرئس
وسل عنه فرسان السواحل هل رأوا
مواقفه فيها الكماة تفرس

---

(١) الديوان ٧٧ - ٨٤ ، والقصيدة على البحر الكامل متفاعلن ٦ مرات ، وتبلغ مائة وثلاثة وثلاثين بيتا .

يلوذ به من كل حى سراتــه
إذا اشتجر المران والخيل تشــمس[1]

وقد استقصى فيها مفاخر (السيد سعيد بن سلطان) وأمجاد دولته فى الخليج وشرق أفريقيا وفارس والهند . وكانت قطر فى الفترة من ١٧٨٣ وحتى ١٨١٦ تحت امرأة الشيخ جابر ثم ابنه رحمه ثم توالى عليها شيخ من البوعينين وبنى نعيم حتى ظهر الشيخ محمد بن ثاني (ت١٨٧٨ م)[2] .

ونظر إلى (لاميّة العرب) للشنّفرى الأزدى[3] : -

أقيموا - بنى أمى - صدورَ مطيّكم
فــإنى إلى قــوم ســواكم لأميــلُ
فقد حُمّت الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ وشُدتْ لطيات مطايا وأرحُلُ

و(لامية) العجمم لـ(الطغرائي)[4] :

---

(١) الديوان ٣٣ - ٣٦ وهي على البحر الطويل (فعولن مفاعلين) ٤ مرات ، وتبلغ ثمانية وخمسين بيتا . وكانت دولة (السيد سعيد بن سلطان) قد اتسعت وبلغت غاية مجدها في آسيا وأفريقيا ، وتوافد عليه الشعراء ينشدونه ما يتناسب ومقام دولته أمثال هلال بن سعيد بن عرابو وابن رزيق (حميد بن محمد) وغيرهما من الشعراء .
راجع د . على عبد الخالق : الشعر العماني ١٣٢ - ١٣٥ دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٤ م .

(٢) لوريمر ٣ / ١١٩٨ وما بعدها .

(٣) الزمخشري : أعجب العجب في شرح لامية العرب - القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ ؛ نهاية الأرب في شرح لامية العرب عطاء الله بن أحمد المصري - القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ واللامية على البحر الطويل (فعولن مفاعلين) ٤ مرات ، وتقع في ثمانية وستين بيتا .

(٤) نظم الطغرائي (مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي) قصيدته في بغداد سنة ٥٠٥ هـ ، وكان وقت إنشائها في حالة عسر وضيق ، وهي على البحر البسيط (مستفعلن فاعلن) ٤ مرات .

١٩٠انظر لامية العجم (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) للصفدي - الإسكندرية سنة

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحليةُ الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيرًا ، ومجدى أولًا شرَع
والشمسُ رأد الضحى كالشمس فى الطفل

فأنشأ لامية يمدح بها شريف مكة (محمد بن عون) سنة ١٢٤٨هـ وسماها (لاميّة الأشراف) :

مِنَ البشائِر ما أعلى سَنا الدول مثلِ التى أوردتها ألسُن الأسلِ
تهُب منها رياحُ النصرِ عاصرةً فيعطَس العِزُّ منها أنف كُلِّ ولى

وإذا كانت (لاميّة العرب) تصور حياة الصعلوك تصويرًا دقيقًا وتمتاز بفصاحة ألفاظها وبداوة أخيلتها ، وإذا كانت (لاميّة العجم) تتضمن (نسبيًا) ممزوجًا بالفخر والحماسة والحكم وشكوى الزمان لما أصاب الطغرائي من ضيق - فإن (لاميّة الأشراف) تتناول موضوعًا متكاملًا متصلًا بالأشراف من البيت النبوى . وإطلاقه عليها هذه التسمية لما اشتملت عليه من ثناء ومدح لآل البيت وحديث عن مآثرهم وإظهار لفضائلهم ، وبيان لأثرهم على الأمة . وإن مديحه للشريف (محمد بن عون) يعد امتدادًا لفن المدائح النبوية واستلهامًا منها ، وتأكيدًا للروح الدينية والحب لآل البيت .

ومثلما سجلت قصائد (حسان بن ثابت) و(عبد الله بن رواحة) و(كعب بن زهير) أمجاد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه - فكذلك (لاميّة الأشراف) تتناول العترة الطاهرة والبقية من آل البيت وخاصة أن البيت النبوى تمتد فيه عموم الفضائل ومآثر الخير جيلًا بعد جيل على نحو قوله :

يا كعبةَ الفضل يا ركنَ البسالةِ يا بَيتَ العفافِ ، وبابَ النُّجحِ للأملِ
إليكَ مني قريضًا عزَّ مدركه على سوايَ بجدِ القولِ لا الهزلِ
قد أذْعنْت لى حذاق العراق به وفضلُ أهل الحجازِ الطيبين جلى

لِيَ القوافى مطيات فأوردها جزالَة المدح تُسقى رقة الغزل

وإنه ليقارن بين (لاميته) و(لامية العجم) فى إشارات موجزة تحملها بعض أبيات فيقول :

(لامية العجم) تحكى فضل قائلها وحسن (لامية الأشراف) تشهد لي
يخلد الذكر حسن الشعر رائقه وينشر الطيب فى الأمصار والسبل
خير المدائح ما أهداهُ ذو حسبٍ حُرٌّ له المدح يُهدى غَير منفصل[1]

وللقصيدة حكاية وقصة ؛ فيذكر راويته وابنه (السيد أحمد بن السيد عبد الجليل) جامع الديوان أن « من إنعام الله علينا أننا لما فرغنا من مناسك الحج سنة ١٢٤٨هـ ، ونفر كل إلى وطنه - بلغ شريف مكة ، ووالي الحجاز بأسره الشريف (محمد بن عون) قدوم الوالد حاجًا فى هذا العام . حيث انتشر له ذكر فى مجلسه العام ؛ فطلبه للحضور إليه ، وأحب انضمامه لديه . ولما حضر إليه بالغ فى إكرامه ، وأدناه فى مجلسه ، وخصه بالالتفات . . . إلى غير ذلك من أنواع الكرامات ، ثم لم يزل يتضاعف إكرامه له حتى لم يكن عنده أحد أدنى منه إليه . ولما وصل الشريف إلى الطائف سنة ١٢٤٩هـ لم يزل يتعاهد الوالد بالمكاتبة اللطيفة ، والمراسلة الشريفة ، وبشره بسلامة أخى عبد المحسن من بعد وقعة (سُبيع)[2] . ولما قدمنا إلى الطائف عامله بتلك المعاملة وزيادة ، إلى أن غزا سُبيعًا ، وهى على أجمل حال معه ، ولما ظفر القوم ، وجاء البشير منه - وهو محسن بن على المضايفى - فتواضع مع الوالد ، وأخبره بصورة الواقعة ، وكذلك أخبر أعيان مكة ؛ فأحب الوالد

---

(١) الديوان ١٣٢ - ١٣٦ .

(٢) سبيع قبيلة في أطراف عسير الشرقية الشمالية ؛ بينها وبين نجد مسافة ، وهي بقرب الوشم ، وتمتد إلى وادي تربة ورينة .

أن يكافئ الشريف على حسن سيرته معه ، وكمال وقار وحشته له ؛ فنظم هذه القصيدة الفريدة مهنئًا له ومادحًا[١] » .

ودلالة ذلك أن صلة الشاعر بالشريف (محمد بن عون) كانت صلة قوية ، وعلاقة ود . وقد قدم الشيخ عبد الجليل (اللامية) بمقدمة نثرية جاءت صورة لما كان عليه أسلوب النثر المسجوع المتكلف الصنعة فى تلك الفترة فيقول :

« عمَر الله الوجود بوجودك ، ونوَّر فى مراكز الثبات طالع سعودك ، ولازالت أعلام سعادتك على مفارق الأيام منشورة ، وآيات محامدك بعذبات الألسن متلوة ومذكورة[٢] » .

« بعد إهدائى إليك عاطر أزهار التحية والتسليم ؛ فالمنهى إلى رفيع ذلك المقام الكريم ؛ هو أنه لما أتحفنا بأنواع المسرات محسن البشارة — أفاضت أفراح القلوب على الوجود بهجة ونضارة ؛ فأفرغنا للمنعم تعالى بصنوف حمده وشكره على ما ألبسكم من مطارف تأييده ونصره . وهزت أعطاف المحبين أريحية الابتهاج بتجدد هذه النعمة الموفورة التى أبرزت جواهر مدائحكم للعيان ، وهى منثورة ؛ فرأيت من اللازم نظمها فى سلك الإجادة ، لتكون فى لبات الأعصر أبهى قلادة ؛ ففصلت كبار دررها بخالص العقيان ، وأفرغت إبريز حلية اتساقها فى قوالب الإحسان ، وقلدتها جيد عطبولة طفلة رداح حصان تستنكف أن تجاورها ضرة فى هذه الأزمان ؛ ولكونها عقيلة قومها لم يكن لسواكم إلى مثلها وصول . وليس لها مهر سوى رفعة قدرها ، وتلقيها بالقبول ، وهذه هي »[٣] :

---

(١) الديوان ١٣١ .

(٢) عذبات الألسن : ما عذب وساغ وصفا وراق من الكلام .

(٣) ديوان الطباطبائي : ١٣٢ .

مِن البشائر ما أعلى سنا الدول مثل التى أوردتها ألسن الأسل
تهُب منها رياحُ النصر عاطرةً فيُعطس العزُّ منها أنف كل ولي[1]

وقد تأثر فيها بانتصارات شريف مكة ؛ فجاءت استجابة لنجاح المسعى ، وكلها بشائر نصرة رفعت أمجاد الشريف (محمد بن عون) الذى قدم ثمن النصر شجاعة وبسالة لا نظير لهما (١ - ١٦) وبوفاء وكرم نفس وعزة وحماية للذمار (١٧ -٢٥) . وتمضي (اللامية) فى استعراض قوة أعدائه من قبيلة (سُبيع) أمثال بنى عامر ، وبنى عمر والقريشات والسودة وآل عمير . وفى حديثه عن جند الشريف (محمد بن عون) يرد شجاعتهم إلى وراثة الشرف والتضحية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم (٣٤ - ٥٢) .

ويختم (اللامية) ببيان قيمتها الموضوعية والفنية وسط شعر المديح عمومًا ، و(لامية العرب) و(لامية العجم) خصوصًا . وتتضمن (اللامية) لنصح الشريف (محمد) يمثل نصح المحب لا نصح المكتسب ؛ فخلقه وأصله يدفعانه إلى تقديم الرشد والتوجيه خالصين .

و(الطباطبائي) عاش فى منطقة الخليج التى شهدت أحداثًا تاريخية على جانب كبير من الأهمية « فقد عاصر حياة غير مستقرة لضعف الحكم العثماني ، واختلال نظم الإدارة واتصل بالخلفاء والأمراء والملوك فلا غرو أن يكون شاعر المنطقة كلها .

---

(١) ألسن الأسل : كناية عن النصر ؛ فجعل للأسل ألسنًا والأسل جمع أسل وهو الرمح والنبل ، وكل ما رق وحد من سيف أو سكين أو سنان ، والأصل في الأسل : كل عود طويل لا عوج فيه ، وكل شيء ألمس ناعم ، وطرف الشيء المستدق ؛ فاستعير للرماح ثم نقل إليها . ويعطس من أعطس . والعطاس : اندفاع الهواء من أنف الإنسان بعنف لعارض . والمراد أن العز يغمر الديار ويملأ الأنوف .

وشاءت الأحداث أن يكون حياته صورة من أحوال عصره ، وهموم أمته ، ومعاناة أهل الخليج من أقصاه إلى أقصاه . وإذا كان الأديب يعايش جماعته وأحداثها ؛ يتأثر بها ، ويؤثر فيها - فشعره شاهد على زمانه ، وما وقع فيه من غير ؛ فهو معرض تصوير لما كان يجري من صراع بين الحكام والأمراء . وكان قد أتيح للشاعر الاتصال بكثير من الأمراء والولاة ورجال العلم وأهل الأدب ؛ فجاء شعره ممثلًا لما يدور حوله ، وانعكاسًا لتلك الأحداث ، وهو فى كل تحركاته من العراق حيث ولد وتربى ، وقطر حيث نشأ وتزوج ، والبحرين فى التقائه بآل خليفة ومكة والمدينة بدخوله على آل عون ، ونجد حيث اقترب من آل سعود والكويت حيث قضى بقية حياته - كان يتحرك فى وطنه العربى الكبير الذى لا تفصله حدود ، ولا قيود ؛ حتى إنه ليعد من خاصة كل بلد أقام فيه ، ومن وسط أهله ، وأوثق الناس صلة بحكامه ؛ فكان فى معية كل أمير ، وعلى مقربة من كل حاكم ؛ فقد راقب أحداث المنطقة عن كثب ، فلما كان عمره سبعًا وعشرين سنة ومقيمًا فى الزبارة بقطر ، ثم خرج إلى العراق لبعض المصالح ووقع الغزو على (الزبارة) من قبل السلطان (سلطان بن سعيد بن أحمد البوسعيدى) لم يستطع العودة إليها إلا بعد سنوات عندما نزلت كتائب (سليمان بن سيف بن طوق) سنة ١٢٢٤هـ لإخراج السلطان العماني منها .

ثم لما كانت حروب (محمد علي) و(إبراهيم باشا) على الحجاز راقب الأحداث وكان الأمير (تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود) قد بعث برسالة للشاعر سنة ١٢٤٨هـ ؛ فرد عليها الشاعر مشجعًا الأمير وباعثًا فيه روح الثقة فى النصرة والتأييد بقوله : -

أحرزتَ بالهمة العلياء منفـردًا ما يعجزُ الجحفل الجرار مجتمعا
ونلت بالحزم ما لم يجر فى خلد وأن يمد إليه طالب طمعـا
لم يشنكَ الهولُ عما رمتَ غايتهُ ولم تكن في الذي كابدته جزعا

وفى الرسالة تعريض بإبراهيم باشا ومحمد علي وإفسادهما على الحرمين ، وأهل الشام[1] . وفى ذلك الوقت كانت له صلات بالشريف (محمد بن عون) فى مكة وبأمراء البحرين من (آل خليفة) فيما بعد سنة ١٢٥٩هـ كما شاهد أحداثًا فى العراق انتهت باسترداد العراق لمنطقة المحمرة والأهواز سنة ١٢٥٣هـ . وشعر (الطباطبائى) فى كل مدائحه هذه لا يمثل موقفًا سياسيًا تجاه حاكم على حساب آخر ، ولا يستغل ظروف كل حكم على الرغم من كثرة الفتن آنذاك . لقد كان شعره مع جميع الحكام مدحًا ورفعة وإعلاء لشأن الدين والحق .

وأما اتصاله بالعلماء والشعراء فكان واسعًا ومتصلًا ؛ فبينه وبين (السديرى) أمير الإحساء علاقة ، وبينه وبين الشيخ (عثمان بن سند) مساجلة حين نزل البصرة سنة ١٢٣٤هـ ، ومن طرائف ما يروى عنه فى ذلك قوله :

« اجتزت بشيخ مشايخ المنتفق ؛ الشيخ (حمود بن ثامر الشيبي) زائرًا له على شاطئ (الفرات) . . . وكان الشيخ (عثمان بن سند) معنا فى الزيارة ، وكان معنا الشيخ (محمد صالح) مفتى (البصرة) . فقال الشيخ (عثمان بن سند) ، وكان يحب القهوة البنيَّة :

مُرا لى صاحبىّ بكأس قهوة

فبادرت بالأمر بها له : فقال : لا : بل أجز[2] ؛ فاستقلته من إجازة

---

(١) الديوان ١٥ - ١٨ .

(٢) الإجازة في علم العروض : المخالفة بين أبيات حركة الحرف الذي يلي حرف الروي ، وأجاز : خالف بين هجاء حرف الروي .
وأما الإجازة في مجال الأدب فهي أن يُتِمَّ بيتًا أتى مطارحه بصدره ، وهي المرادة هنا . ومعنى استقلته من إجازة البيت : طلبت منه أن يعفيني من الرد عليه .

البيت ، فلم يقلنى فأنشدت :

كذَوْب التِّبر صافيةً بِغَدْوة

ثم قال : زد فزودته عدة أبيات مساجلة[١] له ؛ منها :

يطوف بها عليَّ أغنّ أحوى كأن بخده والكف جذوة
رشيق القد يحكي البان لينا كأن به إذا ما ماس نشوة[٢]

وهذه القصيدة من طرائف ما يحكى عنه ، فى سرعة البديهة ولطف الظرف والفكاهة . كما كانت له علاقات ومودات مع السيد (عبد القادر أفندى بن عبد الله صبغة الله الحيدري البغدادي) وبالأديب السيد (عبد الباقى العمرى الموصلى) وبأديب المدينة (السيد محمد أمين الزيلهلى) والشيخ (عبد الله سراج المكى) والشيخ (محمد بن زينى الشيبى) حامل مفتاح البيت الحرام . وفضلا عن علاقاته بأدباء (العراق) أمثال من ذُكر : فقد توثقت صلاته الأدبية بأدباء الشام ، وجرت بينه وبين المعلم (بطرس كرامة)[٣] رسائل ود شعرية ونثرية ، وأعجب بشعر (بطرس) ؛ خاصة

---

(١) المساجلة : تناشد الشعر هذا يقول شطرًا أو بيتا وآخر يرد عليه على الوزن والقافية ، وقد تكون المساجلة أو المطارحة حول نص طويل .

(٢) الديوان : ٤٧ - ٥٠ .

(٣) من شعراء الشام في عهد (محمد علي) عاش في الفترة ما بين (١١٨٨ - ١٢٣٠ هـ / ١٧٧٤ - ١٨١٥ م) وانتقل إلى لبنان ، واتصل بالأمير (بشير الشهابي) ، وضمن شعره قصائد في الوصف والمدح ؛ منها مدحه (إبراهيم باشا) لما فتح عكا ، وعمل مترجما في المابين السلطاني بالقسطنطينية ، وتعرف هناك على (داود باشا) والي العراق سابقا من قبل السلطان العثماني ود (بطرس كرامة) ديوان شعر (سجع الحمامة) طبع في بيروت سنة ١٨٩٨ م / ١٣١٦ هـ .

انظر زيدان (جورجي) : تاريخ آداب اللغة العربية ٤ / ٢٠١ ؛ الدسوقي (عمر) : في الأدب الحديث ١ / ٥٣ - ٥٤ - القاهرة سنة ١٩٧٠ م الطبعة الثامنة ، مشاهير الشرق ٢ / ٢٧٨ طبعة (٢) .

القصيدة (الخالية)[١] التى بعث بها من (القسطنطينية) (داود باشا) إلى أدباء (العراق) ليقفوا عليها ويعارضوها ، والتى طالعها :

أمِن خدهَا الوردْى أفتنكَ الخَال فَسحٌّ من الأجفان مدمَعُك الخَال ؟
وأومض برق من محيا جمالها لعينيك أم من ثغرها أو مض الخال[٢]

وفعلا عارضها وخمسها بعض الشعراء العراقيين أمثال (السيد محمد الألوسى) و(عبد الباقي العمري) و(إبراهيم بن صادق العاملى) . ولما علم (الطباطبائى) برغبة (داود باشا) فى معارضة (الخالية) فقد (ذيّلها) بقصيدة تبلغ سبعة عشر بيتا فيها مدح لـ(داود باشا) ووصل (التذييل)[٣] بالأصل كأنهما شيء واحد فالبيت الأخير من نص (بطرس كرامة) يقول :

لكل جماع إن تمادى شكيمةٌ ولكن جماع الدهر ليس له خال

فأورد (الطباطبائي) على أثرها مذيلا :

نعم خاله تقوى الإله فـإنها ستكسوك ثوب العز إن أعوز الخال

---

(١) القصيدة (الخالية) نسبة لكلمة الخال التي جعلها قافية بمعان مختلفة ؛ حسب ورودها في معاجم اللغة ، والكلمة وردت في معاجم اللغة بمعان كثيرة أوصلها صاحب القاموس المحيط لنحو ستة وثلاثين معنى الصاحب - الجيش - الفحل الأسود - السحابة المخيلة - البرق - الكبر . الشامة الجبل الضخم - اللواء - الكفن - الخلافة - الظن - التوهم - العزب من الرجال - الأكمة الصغيرة .. الخ .

(٢) الديوان ١٩٦ - ١٩٨ والقصيدة على البحر الطويل ، وتبلغ ثلاثة وعشرين بيتا . والخال الأولى : الشامة ، وفي الشطر الثاني بمعنى السحاب ، وفي البيت الثاني بمعنى : البرق .

(٣) التذييل : تعقيب الجملة بجملة أخرى تتضمن معنى الأولى لتأكيدها مثل (جاء الحق وزهق الباطل ؛ إن الباطل كان زهوقا) وفي الشعر أن يعقب القصيدة بأبيات تقصر أو تطول على الوزن والقافية والروي على أن تتسق المعاني ، وتتواصل الأفكار .

وقل لعفاة ساءهم سوء حالهم وما طرهم عن واكف السحب الخال
هلموا سراعا واهرعوا نحو ماجد سري فما كل الفحول هو الخال
إذا استبق الأقران في حلبة العلى فكل كريم رام سبقا له الخال
فليس (لداود) الهمام مزاحم بعلم وحلم لا يوازنه الخال

وهذا (التذييل) وإن كان مجرد مجاراة ومنافسة تقليدية لا شيء فيه جديد مبتكر ؛ بل مجرد إثبات مقدرة فى (النظم) فإنه يعد بمقاييس زمانه أحسن ما قيل وأبلغه ، وأمرًا دالا على المقدرة والمهارة ؛ فمن ذا الذى يسابق (بطرس كرامة) فى (مضمار) واحد ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصل التذييل بالأصل حتى كأنهما صدرا عن شاعر واحد إلا (الطباطبائى) ؟

لقد كان (الطباطبائى) - كما يرى أدباء زمانه - أسرع بديهة ، وأدق تعبيرا بعد ما اعتذر شعراء آخرون عن تذييل (الخالية) ، ولم يستطيعوا مجاراتها ؛ ولعجز (صالح التميمى)[1] عن مجاراة (بطرس كرامة) فإنه يعتذر لـ(داود باشا) والي العراق السابق لما طلب منه ذلك بحجة أنها صادرة عن أديب (نصرانى) فقال فى الاعتذار :

عهدناك تعفو عن مسيىء تعذرا آلا فاعفنا عن رد شعر تنصرا

ثم يتساءل قائلا :

وهل من (مسيحى) فصيح نعده إذا أينع الشعر الفصيح وأثمرا ؟
دع الشانىء المخصوص بالنص إننا نراه بميدان البلاغة أبترا[2]

---

(١) صالح بن درويش بن التميمي ، ولد في الكاظمية ببغداد ، ونشأ في النجف ، واتصل بالوزير (داود باشا) فقربه إليه ، وجعله من كتاب ديوانه ، ومن أقرب شعرائه ، وتوفي في بغداد سنة ١٢٦١ هـ عن عمر يناهز السبعين عاما .

(٢) ديوان الطباطبائي : ٢٠٠ .

ولما كان (التميمى) غير قادر على مجاراة (بطرس كرامة) وليس مؤهلا للقيام بمثل ما قام به (الطباطبائي) - جاءت قصيدة الاعتذار لـ(داود باشا) فى غير موضعها ؛ فليس الأمر يتعلق بعقيدة الأديب أيا كانت ؛ وإنما يتعلق به هو وبقدرته الفنية فى المجاراة من عدمها ؛ من ثم رد (بطرس كرامة) على ذلك بـ(رائية) جاءت جيدة فى فكرتها ، وفى صورتها فقال :

لكل امرئٍ شأن تبارك من برا وخص بما قد شاء كلا من الورى

وقد حمل فيها على (التميمى) وأكد أن اعتذار (التميمى) ليس راجعا إلى أن القصيدة صدرت عن مسيحى ؛ وإنما راجع إليه هو بعجزه عن المجاراة وعدم قدرته الفنية :

إذا ضاع قدر الدر من حلي بائع فذلك جهلا باللآلي بلا مرا
كما عاب شعري قائل فى قريضه « آلا فاعفنا من رد شعر تنصرا »
ولى سمة من صبغة الخال قد سمت وقد سودتنى بالبلاغة منبرا
لعمرك ما داعى الفصاحة ملة ولا نسب حتى ألام وأهجرا
فذلك فضل الله يؤتيه من يشا ولن ينتهي فضل الإله ويحصرا[1]

ولما علم (الطباطبائى) بما جرى بينهما حكم لـ(بطرس كرامة) وفضل شعره على شعر (التميمى) ، وبين أن (التميمى) لم يكن موضوعيا فى حكمه على شعر (بطرس كرامة) بمقايس الفن وأسسه فقال (رائية) ينقض فيها مزاعم (التميمى) :

حكمتُ وحكمي الحق ناء عن المرا بأن (التميمى) الأديب تعثرا
بذم (قواف) فى تمام (جناسها) وذلك نوع فى البديع) تقررا
وليس مراد دين من رق طبعه أكان حنيفا مسلما أو تنصرا
إذا منه عجز عن مجاراة (خاله) فمال إلى الأديان عمدًا تهورا

---

(١) الديوان : ٢٠١ - ٢٠٢ .

على أننى ذيلتها بمديح مـــن يقرر فضل النظم والنثر إذ طرا[1]

(٣)

ولكن هل تعد هذه المجاراة والتذييل مؤشرا يكشف بجلاء عن عبقرية ويدل على كمال الجودة ودقتها ؟ وهل شعر (الطباطبائى) فى مستوى فنى واحد ؟

الواقع أن مستوى الأداء الفنى عنده لا يوحى باستقامة تامة ، ولا يدل على درجة واحدة فى الجودة ؛ فقد تفاوت قوة وضعفا وعلوا وهبوطا ؛ فبعضه جاء جيدا وباقيه ضعف إلى حد بعيد . وهذا الضعف يمثل أولى مراحل شعره ؛ وهى مرحلة الشباب ، وتمثلها عدة قصائد لعل منها (الرائية) التى قالها فى (العراق) فى معانى الشوق والحنين لأهله فى (الزبارة) ، وهو يجرى فيها على نهج القدماء مع التفاوت فى الجودة . والقصيدة لا يجمعها رباط أو اتساق أكثر من كونها بداية غزلية تقليدية ، وحديث غربة عن (الزبارة) وبُعد عن أهله ، لا يستقر له قرار فى العزلة ؛ فهواه مع أحبته فى (الزبارة) ، وحالت الحرب دون التلاقى ، والأخبار مقطوعة ؛ ولذا فهو يستعيد ذكريات الماضى وأيام الشباب بأنسها وطيبها ، ولم يعوضه عنهم امرأة اخرى تدعى (بحر الزين) غير أن قصيدة صديقة (عثمان بن سلمان) قد خففت أحزانه . وجاء وصفه لمحبوبته وصفا حسيا عاما ، لا أثر فيه ، ولا طائل من ورائه ؛ ولكنه مقلد غاية التقليد ؛ حتى ألفاظه وتراكيبه تكاد تكون صورة مكررة لوصف محاسن المحبوبة ، وهو وصف لا يتجاوز الجوانب الشكلية إلى شفافية النفس وعشق الروح الخالصة على نحو قوله فيها :

---

(١) الديوان ٢٠٣ - ٢٠٧ والقصائد الرائيات الثلاث على البحر الطويل (فعولن مفاعلين) ٤ مرات .

رعى الله أوقات السرور التى مضت
لليلات صفو عاريات الشوائب

بها حزت آمالي ، وما كنت راجيا من القرب من حسناء هيفاء كاعب
رصوف أنوف ناهد غادة رمت بسهم من الألحاظ للصب صائب
من الخفرات الغر غنجاء بضة بديعة حسن من بنات الأعارب
لغرتها لألاء من تحت طرة كبدر تبدى من سجوف الغياهب
لها مبسم ألمى شهى معسل بحسن حديث ساحر القلب سالب
منعمة خرقاء لم تدر مهنة
نؤم الضحى تسبى بزج الحواجب[1]

وكذلك (ميميته) فى الحديث عن دخول القائد السعودى (سليمان بن سيف بن طوق) إلى (الزبارة) سنة ١٢٢٤هـ ؛ فجاء حديثه عن انتصار آل سعود على آل خليفة ، وإخراجهم منها إلى الدرعية مجملا يشبه أحاديث الانتصار التى أفاض فيها الشعراء القدامى ؛ فقد وجه كلامه فيها إلى (عبد العزيز بن محمد بن سعود الكبير) الذى أرسى قواعد الدولة السعودية الأولى :

تباركت يا مولى الملوك الأعاظم وعزيت يا مبدي الجليل وراحمي
جزى الله رب العرش بالصفح والرضا
وبالخير من قد كان أصدق قائم

وتكاد موضوعات شعره تدور - فى أغلبها - حول اغراض تقليدية مسبوق فيها كالمديح والحكم وبعض الوصف العام ، وقصائد الوداد للإخوان والأدباء والعلماء والتهاني والعتاب . وهي قصائد تفتقر للصياغة الجيدة الباعثة على التأثير الوجداني والنفسي .

---

(١) الديوان : ٣ .

ولعل له بعض العذر : إذ قد عاش فى عصر كان الغرام بفن (البديع)[1] ما يزال مستحوذاً على بناء القصيدة ، ومؤثرا فى صياغتها بدرجة مسرفة ، وكان الشعراء يسترجعون آثار القدماء ، ويقلدون من سبقهم ؛ بل إن كثيرا من غرام الشعراء بالبديع سيطر على شعراء الأمة آنذاك أمثال الشيخ (على الدرويش ١٨٥٣م / ١٢٧٠هـ) والشيخ (حسن قويدر ١٢٠٤هـ /١٢٣٠م) والشيخ (محمد المهدى المصرى ١٨١٥م /١٢٣٠هـ) والشيخ (رفاعة الطهطاوى ١٨٠١ - ١٨٧٣م) و(الشيخ ناصيف البازجى ١٨٠٠م) والشيخ (الشهاب الألوسى البغدادى) والمعلم (بطرس كرامة) وغيرهم .

(٤)

إذا كان الشأن فيه على ما سبق ذكره فمن اليسير وضع شعره فى منزلته وسط الشعر العربى . فالطباطبائى يمثل جيلًا من (العروضيين النّظامين) جيل التلقى والأخذ ، هؤلاء الذين جاءت أشعارهم ممثلة لأدب الرضا والاسترخاء والزخرفة الشكلية والتزويق الخارجي والحلى اللفظية والترف وضعف التأثير وضياع القيمة سواء فى حياة مبدعيه او متلقيه ؛ فكثيره مصنوع لا يرتفع لمستوى الجمال الفنى فى شكله ، ولا للقيمة الحقة فى موضوعاته . إنه أدب لا قيمة فيه سوى أنه يقرأ للدراسة غالبًا ، وللتمييز بينه وبين أدب الخلود والامتداد والجودة والتأثير . وهذا الأدب يمثل نوعًا من الحياة اليسيرة السهلة يتلاءم معها ، ويرضخ لمطالبها .

---

(١) علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، ورعاية وضوح الدلالة ؛ أي تتصور معانيها وهو معنوي ولفظي ؛ فمن الأول المطابقة والتدبيج ومراعاة النظير والإرصاد والمشاكلة والمزاوجة والعكس والرجوع والتورية .. الخ ومن اللفظي الجناس ورد العجز على الصدر والسجع والموازنة والتشريع .. الخ .

ويتمثل هذا اللون فى مجموعة من الشعراء فى القرنين الميلاديين الثامن عشر والتاسع عشر ، جاء شعرهم على نهج واحد فى الأغراض القديمة من مديح ومواعظ وحكم ومراث وبعض الوصف الحسي ، ونظم للعلوم . فكان منهم قبل (الطباطبائي) من شعراء الخليج (الحبسى)[١] ، وكان ممن عاصره (ابن رُزيق)[٢] و(الدرمكى)[٣] و(الغشرى)[٤] و(ابن عرابة)[٥] و(ابن مشرف)[٦] و(البيتوشى)[٧] كما كان منهم من جاء على أثره كابنه (أحمد عبد الجليل) وإن اقتصر دوره على رواية شعر أبيه وجمعه وعلى التدريس) و(خالد العدسانى ١٢٥٠ - ١٣١٦هـ) و(عبد الله الفرج

---

(١) راشد بن خميس بن جمعة (١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) عاش في عمان نهاية القرن الميلادي السابع عشر وحتى منتصف الثامن عشر مدح من اليعاربة بلعرب بن سلطان اليعربي و (سلطان بن سيف) و (المهنا بن سلطان) و (يعرب بن يعرب) وله مدائح نبوية وإخوانيات ومواعظ ومراث وتعاز ، وطبع ديوانه سنة ١٩٨٢ - القاهرة ، بتحقيق عبد العليم عيسى ، مطبعة البابي الحلبي .

(٢) حُميد بن محمد المتوفي سنة ١٢٩١ هـ شاعر آل بو سعيد ومؤرخ حياتهم طبع ديوانه (سبائك اللجين وقرة العين) سنة ١٩٨٣ - القاهرة بتحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة - مطبعة الحلبي مدح (سالم بن سلطان) و (محمد بن سالم) و (سعيد بن سلطان) وله كتاب (الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين ، طبع بمصر سنة ١٩٧٧ - سجل العرب) .

(٣) أبو الأحوال (سالم بن محمد) شاعر عماني مدح آل بوسعيد .

(٤) سعيد بن محمد مدح الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤١ - ١٧٨٣ وأولاده من بعده وطبع ديوانه بمصر سنة ١٩٨١ - بتحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجه ويشتمل على المواعظ والمدائح والحكم .

(٥) هلال بن سعيد بن ثاني مدح (السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٧ - ١٨٥٦) وابنه (محمد) و(هلال بن سعيد) وله ديوان (جواهر السلوك وتسلية حزن العاشق المهلوك) حققه الدكتور داود سلوم .

(٦) أحمد بن علي الأحسائي ت ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م وشعره في العقائد والمدائح .

(٧) عبد الله البيتوشي الأحسائي (١١٢٠ - ١٢١٠ هـ / ١٧٠٨ - ١٧٩٥ م) .

١٢٥٢ - ١٣١٩هـ) و(عبد الله الخلف ١٢٩٢ - ١٣٤٩هـ) و(ماجد بن صالح الخليفى ١٨٧٣ - ١٩٠٧م) و(ابن عثيمين ١٢٧٠ - ١٣٦٣هـ / ١٨٥٤ - ١٩٤٣م) مع تفاوت فيما بينهم غالبا .

فالشعر عند هؤلاء - كما كان عند معاصريهم من شعراء مصر والشام قبل عصر النهضة - كان - فى عمومه - يتسم بالمحاكاة والأخذ والتلقي ، لا إبداع فيه ، وناظموه تقيَّدوا وحصروا أنفسهم فى التقليد ، ومن ثم فيجرى عليهم الحكم الذى حكم به العقاد على أقرانهم فى مصر بأن شعرهم « لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة فملأوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع ، وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليزينوا بها كتب البيان والبديع ، وظهر فى الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس . . . وراح الشعراء يتبارون فى اللعب بالألفاظِ وجمعها كما يتبارى الأطفال فى جمع الحصا الملوّن وتنضيده ... »[1] .

وترجع أسباب الضعف فى الأساس إلى غلبة (الشعر النبطي) وتقديمه دون سواه . على أن الانصراف للهجة الدارجة العامية يعد - فى أغلبه - إخفاقا فى التعبير بالفصحى وعجزا . وقد أدى ذلك لضعف أساليب الصياغة وغرابتها وقلة العلم بدقة الأداء الجيد ، كما أن دواوين الشعر وكتب التراث لم تكن قد طبعت بعد ؛ هذا فضلًا عن أن كثيرًا من الشعراء افتقدوا مقومات العبقرية ودواعيها ، ومن ثم لم يظهر أثر الحرية الذاتية فى الإصدار والإبداع والإحساس بآمال الجماعة وآلامها .

لكن هل استطاع (الطباطبائي) وسط كل ذلك أن يرتقى بالشعر وبتراكيبه وصياغته ارتقاء له قيمة فنية وأثر جمالى ؟ وهل أمكنه تخليص الشعر

---

(١) الفصول ١٥١ - ١٥٢ مجموعة مقالات أدبية ... بيروت ١٩٧١ طبعة (٣) . والتطريز : التوشية والزخرفة . والتصحيف : التحريف والخطأ في قراءة الكلمة .

من عوامل الضعف والركاكة إلى الصحة والاستقامة ومتانة التراكيب ، وحسن التصوير ؟

الواقع أن تفوقه على معاصريه لم يتضح إلا فى قوة صوته ، وانتشار شعره الفصيح وغلبته على النوع العامي . وإن أثره على معاصريه يشبه إلى حد ما أثر (الساعاتى ١٢٤١ - ١٢٩٨هـ /١٨٢٥ - ١٨٨٠م) ودوره فى شعراء مصر والشام ؛ فثمة بواعث قرّبت بينهما فى الطريقة والصياغة والأغراض التى تناولاها : فكلاهما نهل من ثقافة واحدة ؛ ثقافة عربية قديمة ، وكلاهما اطلع على كتب الأدب وقرأ فى دواوين الشعر ، وكلاهما عاش فى زمن واحد ، وإن اختلفت البيئة التى وجد فيها كل منهما ، وكلاهما تنقل فى الأمصار ، ودخل على الأمراء ، وكلاهما أخذ فى أغراض من المديح والرثاء للأمراء والملوك ، واجتمعا على مدح الشريف (محمد بن عون) شريف مكة والسلطان (عبد الحميد) . وعلى هذا يمكن أن يعد كل منهما إرهاصًا ومخاضًا لنهمضة الشعر فى بيئته مع الاختلاف فى قوة أثر كل منهما ودرجة دوره ؛ فأثر (الساعاتى) فى معاصريه ، ومن جاءوا بعده كـ(البارودى) أقرب إلى روح عصر النهضة الأدبية من أثر (الطباطبائي) فى معاصريه ومن جاءوا بعده كـ(ابن عثيمين) و(أبى مسلم الرواحى) و(خالد الفرج) وغيرهم من شعراء الخليج .

والتمييز بين أثر كل منهما على شعراء بيئته لا ينفي أن كلا منهما كان حلقة اتصال بين سابقيه ولاحقيه فى مجالات التطور والانتقال ممن يخاطبون الأمة ، ولا أن يجعل لكل منهما امتيازًا على معاصريه . والفصل بين دور كل منهما فى بيئته فصلًا حاسمًا يمنع الاختلاط بينهما أمر غير يسير ؛ فالأمور غير المادية ليس من شأنها أن تميز بعلامة ولا أن تحد بحدود ؛ فقد نعثر على قصيدة من قصائد (الطباطبائي) فيها استقلال الشخصية الشاعرية وأثرها

بأوضح وأجلى وأرق مما نجده عند (الساعاتى) ونحن واجدون فى شعر (الساعاتى) ما يروق أكثر مما هو عند (الطباطبائى) .

وليس بالأمر اليسير أو الهينّ أن يجمع (الطباطبائى) حوله نفرًا ممن يُعجبون به فتجتمع له قدرة على إلقاء الشعر ، وشد الأسماع إليه ، وحمل الأمراء والحكام على تقديمه .

ويتمثل دوره فى نقل الشعر إلى اللغة الفصحى والتخفف من طغيان اللون (النبطي) وغلوائه . ودوره يعد مقدمة لمن تلاه ، وهو دور لا يؤهله بحال لأن يصير رائد جبله . وعبقرى زمانه ؛ فإمكاناته الفنية لا ترفعه لريادة النهضة الأدبية بوجه عام ، ولا تجعل منه رأس مدرسة المحافظين والتقليديين لا فى الشعر الكويتى الفصيح ولا فى غيره كما يرى بعض الباحثين[١] . كما أن التفاته للتراث ، ومحاولته توجبه النظر إليه ، وحرصه على إخراج القصيدة فى ديباجة ، وتخليصها من أسر المحاكاة ، وإسراف البديع والألغاز والتأريخ . . . إلى استلهام روح الفن الأصيل فى صياغة دقيقة[٢] – لا يجعل منه « رائدا للنهضة الثقافية ولحركة إحياء الشعر التقليدى »[٣] .

وإن شعر (الطباطبائى) مهما جاهد فى تحسينه وإخراجه من دائرة البديع يبقى علامة من علامات شعر القرن الميلادى التاسع عشر ؛ فأفكاره مكررة مستهلكة لا نفاذ فيها لعمق الأشياء ، وهو – فى أكثره – مثال لشعراء عصره

---

(١) راجع مجلة البيان الكويتية عدد ٦٧ أكتوبر سنة ١٩٧١ ص ٣٤ مقال للدكتور إبراهيم عبد الرحمن ؛ د . عواطف العذبي الصباح : الشعر الكويتي الحديث ٦٢ – الكويت ١٩٧٣ المطبعة العصرية .

(٢) العلي (أحمد محمد عبد الله) : صقر الشبيب دراسة وتحليل ٢٢ – ٢٥ الكويت سنة ١٩٨٦ طبعة (١) منشورات ذات السلاسل .

(٣) د . عواطف العذبي المرجع السابق ٦٢ .

كـ (عبد الباقي العمري الموصلي) والشيخ (عثمان بن سند) والشيخ (صالح التميمى) والمعلم (بطرس كرامة) .

ويرى الدكتور (ماهر حسن فهمى) أنه « على الرغم - من المستوى الفنى المتواضع لشاعرنا الطباطبائى ؛ فقد استطاع أن يلفت الأنظار فى بعض قصائده . . وأكثر شعره فى المديح والتهانى والعتاب ، وهى موضوعات تقليدية بطبيعة الحال . . . ولم يستطع أن يتخلص من تأثير البيئة ؛ ففى شعره التشطير والتقريظ والتأريخ والإخوانيات »[1] ، ويرى أنه فى هذا المنحى « أشبه بـ(الساعاتى) فى مستواه الفنى بصورة عامة . . وربما هبط إلى مستوى أقل ؛ خاصة فى شعره التعليمى . . . ومستواه الفنى لا يعلو ولا يسف ، ويبقى صورة للعصر ؛ استطاع أن يجذب الأسماع بصوته العربى الفصيح ، وأن يلفت أنظار الشعراء من الشباب الذين تأثروا به مثل عبد الله الفرج وخالد العدسانى »[2] .

فحظ (الطباطبائى) لا يصل لحظ (الساعاتى) ؛ لأن (الساعاتى) تأثر إلى حد ما بالمتنبي ؛ حتى لقد حفظ ديوانه وهو فى العشرين ؛ ففى شعره ما يجعل منه أحد طلائع إرهاصات النهضة الحديثة[3] ؛ بل إن شعره فى أشراف مكة من (آل عون) أرقى بكثير من شعر (الطباطبائى) ؛ بـ(الهمزية) التى يقول فيها للأمير (محمد بن عون) :

أوليتنـــي الآلاء ثم تركتنـــي مثل الذي حلت به الـلأواء
ما كان ذا أملى الذى أملته فيكم ، وأنتم سادة كرمـاء !

---

(١) تطور الشعر العربي الحديث بمنطقة الخليج ٢٦ - ٣٠ - الدوحة ١٩٨٥ ك / ١٤٠٥ هـ - دار قطري بن الفجاءة - الطبعة الثانية .

(٢) المرجع السابق نفسه : ٣٠ .

(٣) عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ١ / ١٣٤ القاهرة سنة ١٩٧٠ - الطبعة ٨ دار الفكر العربي .

وكذا (البائية) التى قالها فى انتصارات الشريف (محمد بن عون) على بنى سليم والتى يقول : فيها :

كررتُم على أهل الجبال بمثلها جبال رجال سُيِّرت بالركائب
وما ثَبتوا إلا قليلا وزلْزلُوا وأبطالكُم ما بين ضَار وضَارب

- كل ذلك يدل على مدى الحب الذى وصل ما بينه وبين الأمير (محمد بن عون) وإن مقدرته تعلو فوق مقدرة (الطباطبائى) حتى افتخر بذلك :

أحبهم ما دمت حيا ديانة وأرغب ؛ لكن عن سواهم ترفعا
وقد سار شعرى بين شرق ومغرب
فما اختار غير (البيت والآل) موضعا
وقد طار فى الآفاق بدعا مدَيحهم ولكنه نشر ذكى تضوعا[1]

فالشعر عند (الساعاتى) كما كان عند معاصريه - مهارة لفظية وصناعة خالية من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة »[2] . وعلى الرغم من ضعف المستوى الفنى لدى (الساعاتى) فشعره - فيما يبدو من بعض مدائحه فى الشريف (محمد بن عون) - أرق طبعا ، وأصفى موردًا ، وأسلم تركيبا فى بعض الوجوه من كثير من شعر (الطباطبائى) ؛ لأنه استطاع أن يبتعد - إلى حد كبير - عن ألوان (البديع) والزخارف العاطلة ، والحلى[3] الشعرية التى شاعت فى الحياة الأدبية فى مصر والشام والمغرب ومنطقة الخليج آنذاك « وقد أوتى حظًا من اللّسن والفصاحة

---

(١) المرجع السابق نفسه ١ / ١٣٤ - ١٤٦ .
(٢) المرجع السابق ١ / ١٣٨ - ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق ١ / ١٣٤ .

فاستطاع أن يجيد فى غير موضع من شعره »[١] ، « وإن للساعاتى شخصية فى شعره وإن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة التقاليد الشعرية الموروثة »[٢] .

ولعل ميزة (الساعاتى) التى سهلت له التخلص من كثير مما وقع فيه (الطباطبائى) أن العصر قد تقدم ، وأن الزمن بينهما يقارب جيلا أو أكثر ؛ فقد ولد (الساعاتى) وكان (الطباطبائى) قد أتم نصف قرن (٤٩ سنة) ثم تعاصرا مدة سبع وعشرين سنة أخرى . ومع الفارق بينهما فإن بعض الباحثين لم يشأ أن يحرم (الطباطبائى) من أثر ما فى مجال النهضة الأدبية ، وبعث الشعر ؛ فقد قال عنه (خالد سعود الزيد » : « كان مجئ الطباطبائى فاتحة خير للمواهب الأدبية التى لم تتفتح ، أو التى هى فى سبيلها إلى أن تتفتح وتنطلق ؛ لتحقق وجودًا أدبيا كان من قبل عدما ، أو مايشبه العدم » . ويقول محقق الديوان[٣] : « ولا شك أن جودة شعر السيد عبد الجليل وبراعته فى بلاغته سبب كبير من أسباب انتشار شعره فى حياته » ، و« كان مرآة صادقة لعصره وأهل عصره من جنوب الخليج العربى إلى شماله ، ومن شط العرب إلى شمال العراق » .

إن دور (الطباطبائى) دور تمهيدى ، ومحاولة لتحرير (الذات) من أسر التقليد ؛ فمنزعه البدوى - وإن صفت فيه طبيعته ، وسلمت فطرته وصحت تراكيبه - عائد إلى محاولته الخروج بالشعر عن اللون (النبطى) إلى الصياغة الفصيحة ؛ فأحيانا يوحى بحسن الصياغة والتأليف يبدو مشرق النفس رقيق المشاعر ، حسن التناول يغلب عليه الظرف والمداعبات الإخوانية فى محاولات

---

(١) المرجع السابق ١ / ١٤٠ .

(٢) الزيد (خالد سعود) : أدباء الكويت في قرنين ١ / ي - الكويت سنة ١٩٦٧ طبعة (١) .

(٣) محب الدين الخطيب مقدمة الديوان ص و - يد .

جعلت معاصريه يحاولون النظم الجيد بالفصحى أمثال (خالد العدسانى ١٢٥٠ - ١٣١٦هـ) و(عبد الله الفرج ١٢٥٢ - ١٣١٩هـ) و(ماجد بن صالح الخليفى ١٨٧٣ - ١٩٠٧م) . وإن كان التمهيد للعبقرية ليس ضروريا فى كل حال ؛ فقد تنهض العبقرية وقبلها فراغ وبعدها فراغ كوجود (أبى مسلم الرواحى) و(ابن شيخان) و(إبراهيم العرّيض) فالشاعرية « مزية فردية قد تنجم وحدها بين أقوام لا يقاربونها فى العظمة والقدرة . قد يظهر هذا الشاعر العظيم وقبله خواء ، وبعده خواء (فراغ) ، أو يظهر الشاعر العظيم وبعده أناس أقل منه ، وأقرب إلى من ظهروا قبله »[1] .

وإن ما يسجل للطباطبائى من التفاته للصياغة الفصيحة ، وتحريره الشعر من عوامل الضعف والعجمة والعامية والنهوض به إلى أسلوب تسلم فيه لغته من كل تحريف - لهو منتهى غايته وطموحاته وعبقريته . فشعره على هذا النحو يعد مرحلة متقدمة فى (جيل العروضيين) وتفردًا بين شعراء التلَقّى والأخذ ؛ فهو نقلة نوعية بين (العروضيين) المتكلفين ، وبين المطبوعين فى بداية عصر النهضة ، وإن اتصفت هذه المرحلة بالرتابة والبطء والتكلف غالبا .

ومن الواضح ان الانتقال بالشعر من مرحلة التقليد والضعف إلى الجودة والسمو ، ثم إلى الإبداع والاستقلال والشعور بالحرية القومية والذاتية - لا يمكن أن يميز بعلامات أو يحد بزمن فهذا شأن الأمور المادية . أما الأمور المعنوية والفنية فشئ آخر ؛ ففى حين يجيد شاعر مقلد فى قصيدة ما فينفرد بصياغة محكمة وفكرة عميقة - إذ به يضعف ويقل تأثيره فى قصيدة أخرى ، مما يدل على أن الفوارق ثَمَّ تقوم - فى أغلبها - على الإجمال والعموم ؛ فـ« التفريق بين المراحل . . . على التغليب والترجيح ؛ لا على الحصر والتقييد . وتُلاحظ فيه الدرجات والحالات قبل أن تُلاحظ فيه الأماكن

---

(١) العقاد (عباس محمود) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٢٢ - القاهرة سنة ١٩٧٣ - مطبعة نهضة مصر .

والسنون »[1] .

وربما يجمع الشاعرين جو عام (زمان ومكان) بينما يتفاوت حظهما من العبقرية والإبداع ؛ فأحدهما يسبق زمانه ، والآخر يتخلف عن عصره ، وهذا ما يمكن ان يلاحظ بين (الطباطبائى) ومعاصريه فى الخليج من جهة ، وبين (الساعاتى) ومعاصريه فى مصر والشام من جهة أخرى ؛ فقد كان الشعر عند جماعة من الخليجين أمثال (الغشري) و (الدرمكي) و(ابن رزيق) و(ابن عرابة) و(البيتوشى) و(ابن مشرف) - معتمدا على زخارف وحلى خال من التأثير الوجدانى فى أغلبه ؛ لافتقاره إلى (المثل الفنية العليا) التى يتسامى إليها أصحاب العبقرية . وكانت كل أماني الشاعر إجادة الوزن ، والصياغة على نحو ما دون أثر فني من عاطفة وخيال وتصوير .

وإذن فشخصية (الطباطبائى) الأدبية ونفر من معاصريه تتراءى فى انجلاء وتأثير حينا ، وتخفق أحيانا فلا يكون لها أثر إلا التقليد لفترة الضعف . والحكم على (الطباطبائى) مرتبط - إلى حد بعيد - بالاتجاهات الفنية لدى معاصريه . ومن غير الإنصاف عده فردًا وسط مجموعة كان الطابع العام لشعرهم التقليد والجمود وفتور العاطفة وفجاجة الفكرة وسطحيتها وابتذالها فجاء غالب شعره فى المديح والإخوانيات والوصف وبعض منه فى الاتجاه الدينى والحِكمى والأراجيز الفقهية .

وكان هدفه بالمديح - شأن معاصريه - التقرّب من الحكام والأمراء رغبة ورهبة ؛ فيمدح (شريف مكة) و(آل سعود) و(آل خليفة) و(السلطان عبد المجيد) و(سلطان عمان) و(شاه إيران) - فى وقت واحد ، على نحو

---

(١) المرجع السابق نفسه ١٢٠ - ١٢١ .

مدحه لأمير (الدرعية) في (ميميته)[١] :

تباركْتَ يا مولى الملوكِ الأعاظِم وعُزِّيتَ يا مُبدى الجميل وراحمى

إذ قد جعله ملك الملوك وراحم المستضعفين ، وهذا شأن أمير منطقة فكيف بأمير أمة أو دولة كبيرة ؟ فماذا سيقول في شأنه بعد ؟ . إن مثل هذا الشعر - فيما يبدو - كان الدافع إليه شيئا من الرهبة والخوف من بطش الحاكم ، والتنكيل بالخارجين عليه . وإلا فأي معنى يُفهم من إرسال (الطباطبائى) برسالة لأحدأصدقائه يحمد إليه فيها الله أن سلِمتْ البلاد من قبضة (آل سعود) بعد تمكن (آل خليفة) من الخروج على نفوذهم - إلا خوفه من بطش (آل سعود) ؟ وهذا ما جعل بعض الباحثين[٢] يحكم على مدائح (الطباطبائى) في (آل سعود) بالضعف وافتقارها لصدق العاطفة ؛ لأن مصدرها الخوف والرهبة . ومن ذلك إشادته بشاه إيران (أردشير) في إحدى قصائده التى مطلعها :

أرى غُرر المكارِم من جَوادٍ بها تُستَلُّ أحْقادُ العادى[٣]

ومع أن مبالغته في بعض المدائح كانت في بداية حياته ، ثم اقتصد فيها فيما بعد ؛ فالمقياس الصحيح - كما يرى العقاد - الذى يقاس به حال الشاعر والأمة والأدب معًا هو نوع المدح وغايته . فالمدح مقبول في حق العظماء الذين لهم دور في حياة أممهم ؛ إذا تخيّر الشاعر نوع المدح ؛ فيتضح الفرق بين مادح مغلوب على أمره مستذل مسخّ لعقله ولكرامته في مديح لا يستسيغه القول ، ولا يليق بكرامة الرجال ، وما دح مالك لأمر نفسه يقدر الكلمة في مكانها ويرد صفات المدح للأمة[٤] .

---

(١) الديوان : ٧ - ١٢ . والقصيدة تبلغ ثمانية وثمانين بيتا وهي على البحر الطويل .

(٢) الوائلي (إبراهيم) الشعر السياسي في القرن التاسع عشر ص ١٤٥ .

(٣) الديوان : ٣١٢ وتقع في ثلاثة وثلاثين بيتا على (البحر الوافر) .

(٤) انظر شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٨ - ١٩ ، القاهرة سنة ١٩٧٣ ، دار نهضة مصر .

والحق أن اتجاهات شعر (الطباطبائى) لا تختلف كثيرًا عن اتجاهات شعر معاصريه فى الحرص على المساجلات والأحاجى والألغاز والتأريخ ونظم العلوم[١] مما يعد شعرًا تعليميا ، أو نظمًا للحِكَم والأمثال ؛ فقد تجاوز الإسراف حده فى قصائد غايتها حل الألغاز مثل لغز (الحرب) و(شطب) و(مسباح) و(عصا) و(نجم) و(قبا) وفيها يفك رموزًا أتته فى رسائل شعرية[٢] . ومن الأراجيز ما أرسله للشيخ (عبد الله الأحسائى) وأرّخ له بقوله[٣] :

تـــاريخه قـــال لحســـن سير إجـــازة بـــدت بحور خير

أما الحكم والنصائح فجاءت أثرًا لثقافته الدينية والفقهية ، وتكاد تبلغ ثلث الديوان مع قصائد الروح الدينية[٤] مثل قصائده (إن مع العسر يسرا) و(لا ينال المراد كسلان) و(لا تغضب) و(العقاب) و(ابتهال) و(إلى أكناف يثرب) ناهيك عن القصيدة (المحمدية) و(هداية الأكارم

---

(١) المساجلة : تناشد الشعر هذا يقول شطرا أو بيتا والأخر يرد عليه ومنه الإجازة ، وهي إتمام بيت أتى مطارحه بصدره . والأحاجي جمع أُحجيَّة وأحجوَة : لغز يتبارى الناس في حله واللغز : كلام مُعَمّى يقصد به أمر من الأمور ولكن لا يذكر من عناصره إلا القليل المتشابه فيصعب على السامع إدراك المراد .

(٢) الديوان ٣١٤ - ٣١٩ ؛ ومن ذلك لغز (ساعة) و (جبل) ... الخ .

(٣) والتأريخ هو أن ينظم الشاعر في آخر أبياته كلمات إذا حسبت حروفها بحساب الجمّل نتج عنها سنوات التاريخ المراد ولادة أم زواجا أم انتصارًا ، ولابد من ذكر لفظ تاريخ ثم يورد بعدها الكلمات المتضمنة للتاريخ فمن ا - ي واحد إلى عشرة ، ومن ك - ص من ٢٠ - ٩٠ ، ومن ق - غ ١٠٠ - ١٠٠٠ ، واعتمد الشعراء المسلمون التاريخ الهجري ، واعتمد غيرهم التاريخ الميلادي .

(٤) صفحات ١٤ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٦٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٤٥ ، ١٥٥ من الديوان .

إلى سبل المكارم)[١] . ومهما كان حريصا على مجاراة ذوق العصر ، والمتلقين للشعر فهل كان - كما يرى بعض الباحثين - « مضطرا إلى الأكثار من هذا النوع من الشعر بسبب طبيعة العصر الذى كان يعيش فيه ، وحاجة كل من يعيش بينهم لمثل هذه المنظومات التعليمية »[٢] ؟ . إن مجاراة ذوق العصر ليست فى كل حال حسنة ولا هى من الضرويات . كما أن الإسراف فيها مما يأباه الذوق الرفيع ؛ فالنبرة الخطابية والوعظ والحكمة تعلو على سمو الشاعرية ووحى الإبداع على نحو قوله :

وإنما الفضل فى علم وفى أدب ... وفى مكارم تجلو صدق مفتخر
فلا تساو بأخلاق مهذبة ... أخلاق سوء أتت من ساحر البقر
وخذ بمنهج من يعصى هواه وقد ... أطاع أهل الحجا فى كل مؤتمر
إن الهوى يفسد العقل السليم ومن
يعصى الهوى عاش فى أمن من الضرر
وجاهد النفس فى غى تلم به ... كيلا تماثل نذلا غير معتبر[٣]

فالشعر لا يُبنى على الحكمة كله ، ولا على النبرة الخطابية العالية ؛ ولكنه إبداع خيالى ، وخلق جميل مرقع ، ونزوع وجدانى لنقل صورة مؤثرة . والذوق لا شأن له بالواجب الذى هو موضوع الحاسة الخلقية ؛ ولكن الذوق - مع هذا - يمكن أن يتحلى مواطن الجمال فى الواجب ويوضحها من جهة أن الواجب شيء جميل يحض على الفضائل ويحمل على الرذائل من حيث هي شيء قبيح . وصلة الشعر بالحقائق من حيث جمالها لا من حيث

---

(١) المحمدية تبلغ أكثر من مائة وسبعين بيتا وهداية الأكارم في مائة بيت .

(٢) الدكتورة عواطف خليفة العذبي الصباح : الشعر الكويتي الحديث ٥٩ وما بعدها ، الكويت سنة ١٩٧٣ .

(٣) الديوان : ١٧٦ - ١٨٢ .

البرهنة عليها . والشعر لا يمكن ان يكون مصدره - فى كل الأحوال - الخُلق والعلم والنصائح المباشرة ، وإلا فقد عنصر التأثير .

ومع غياب هذه الحقيقة عنده لوظيفة الشعر فإنه مشدود دائما إلى القديم من الشعر لا ليستلهم منه معنى جديدا أو يستوحى أثرا محدودا ؛ بل ليشطره[1] ويخمسه ويذيّله إن استطاع ، فقد قيّد مواهبه بتشطير بعض الأبيات وتذييلها حين لم يجد إلى المعارضة سبيلا ؛ فأقبل على فن المتنبى هيّابا وجلا لم يستطع إلا أن يشطر أبياتا منها :

(ومطالب فيها الهلاك أتيتها) متذرعا بالصبر فى هدماتها
فإذا كسا الروع القلوب وجدتنى (ثبت الجنان كأننى لم آتها)

كما شطر أبياتا للإمام الشافعى :

(أرى نفسى تتوق إلى أمور) بهن بلوغ غايات المعالى
ولكن الرزية فى مساعٍ (يقصّر دون مبلغهن ما لى)
(فنفسى لا تطاوعنى ببخل) فإن البخل منقصة الرجال
ولا يرضى بأدنى المجد عزمى (ومالى لا يبلغنى فعالى)[2]

وشطر أبياتا لـ(إبراهيم المهدى)[3] ، وأخرى لـ(أميّة بن أبى

---

(١) التشطير في الأصل : تقفية كل شطر من البيت مثل قول أبي تمام

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

وتشطير الشعر : أخذ بيت أو أكثر من شعر الغير فيجعل لصدره عجزا ولعجزه صدرا مع مراعاة تناسب اللفظ والمعنى بين الأصل والتشطير ، ويشترط لجودته ألا يكون في تركيبه تكلف أو حشو ، بل ينبغي اشتماله على زيادة في المعنى فيها انجلاء ولطف وحسن ويسمى أحيانا التسميط .

(٢) الديوان ١٦٨ .

(٣) الديوان ٢٩٣ .

الصلت)[1] فى مدح (عبد الله بن جدعان) وقدم التشطير بقصيدة على الوزن والروى مطلعها :

ليالي الوصل حُقَّ بها الهنـاء وتلك مع الشباب هى المنـاء

ثم عمد لأبيات (أمية) فقال : -

(أأذكر حاجتى أم قد كفاني) عن الإفصاح حدْسك والذكاء
بلى حسبـى لآمـالى شفيعـا (حياؤك ؛ إن شيمتك الحياء)

ومن ذلك تشطير أبيات للشريف الرضىّ[2] . وهو فى كل ذلك التشطير حريص على أن تتصل الفكرة وتتسق فيما بينها ؛ بحيث يصعب الفصل بين الأصل والتشطير ، ومع ذلك فأمر التشطير لا يتعدى المجاراة والمساجلة التى هى التزام المقلدَّ لمن قلدة حسب مثل (التخميس)[3] . ولو أنه صرف طاقته الفنية عن هذا التقييد ، وجعلها طليقة لكان أجدى وأنفع من هذا (التقييد للتقليد وللمحاكاة) والذى منه (الجناس التام) فى قصيدة يقول فيها :

أطعتُ حكم الهوى فيما قضاه فما رعى فؤاد معنى فيه بئس ولى
ما خامر الحبُّ قلبا فاستراح به ولا صحا طالح قد ذاقه وولى[4]

بل إنه كان ينظم مُعِيرًا عواطفه لغيره ؛ فنظم قصيدة على لسان جندى

---

(١) الديوان ١٨٣ .

(٢) الديوان ١٠٨ .

(٣) التخميس أخذ أبيات لشاعر ، ونظم ثلاثة أشطر ملائمة لها في الشكل (الوزن والقافية) والفكرة ووضعها قبل كل بيت بحيث توافق المقام والموضوع وسمى تخميسا لأن شطري البيت تصيران خمسة وقد توضع وسط الشطرين وإذا زادت الأشطر إلى أربعة فيسمى تسديسا أو تسبيعا .. الخ .

(٤) الديوان ١٨٧ .

يستعطف زوجته ، ونظم القصيدة فى (تشجير)[١] باسم تلك الزوجة ؛ فقال :

أيـا سلمـى . . أيـا زهْـرا مشـوق القـلب لـن يبرا[٢]

وأعار عواطفه بهذه الطريقة للنظم على لسان صديق[٣] ، وعلى لسان فقير[٤] ؛ حتى صار شعر (مناسبات) لا يمثل (ذات) الشاعر ، ولا يعبر عن إحساس صادق .

(٥)

من الواضح أن الشاعر حصر موضوعاته فى نطاق ضيق ؛ لا يتجاوز المديح والإخوانيات والمساجلات الشعرية والنصائح والأراجيز . وهذا ما قلل من قيمة فنه ، وتكرار المضمون والشكل . ومع ذلك فدوره يعد وسطا بين معاصريه وأثره - مهما ضعف - باد فيمن حوله ؛ فكما كان (الساعاتى) إرهاصا بظهور (محمود سامى البارودى ١٢٥٥ - ١٣٢٢هـ / ١٨٣٨ - ١٩٠٤م) فبالإمكان عدّ (الطباطبائى) مَعلما لمعاصريه ، ولغيرهم كـ(عبد الله الفرج ١٢٥٢ - ١٣١٩هـ) و(خالد العدسانى ١٢٥٠ - ١٣١٦هـ) و(ابن عثيمين ١٢٧٠ - ١٣٦٣هـ /

---

(١) التشجير عند علماء اللغة تفريع كلمة من يعنى أخرى في استطراد وتسلسل والتشجير البلاغي نوع من المحسنات يعرف باسم التسهيم أو التوشيح وهو شكل من أشكال النظم ؛ فيُنظم بيت يكون أصل القصيدة أو جذعها ، ثم تُفرغ من كل كلمة منه تتمة له من القافية نفسها من جهتيه اليمنى واليسرى حتى يصير كالشجرة ، والأبيات المكملة من بحر البيت الأساسي وسمي مشجرا لاشتجار بعض كلماته ببعضها ؛ أي تداخلها .

(٢) الديوان ١٧٣ .

(٣) الديوان ٢٢٠ .

(٤) الديوان ٢٢٦ .

١٨٥٣ - ١٩٤٣م) و(ابن شيخان ١٢٨٤ - ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) و(عبد الله بن على آل عبد القادر . ١٢٧٠ - ١٣٤٤هـ) و(عبد الله آل مبارك ١٣١٠ - ١٣٤٣هـ / ١٨٩٢ -١٩٢٤م) ، و(أبو وسيم الإزكوى) و(أبو مسلم الرواحى ١٢٣٩ - ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م) .

وإذا كان خير نتاج الشعر ما أظهر جليا أن الأقدمين من نوابغ الأسلاف ما زال أثرهم باقيا لم يفنوا فإن مما حرص عليه (الطباطبائى) من منهج القدماء إنما هو النظم بالعربية الخالصة من شائبة العامية .

أما حال الضعف فى عصره فمنوط بحال الشعراء أنفسهم من ناحية ، وبالإطار الثقافى ، وذوق المتلقين من ناحية أخرى ؛ فكثير من شعراء فترة (الطباطبائى) وهو منهم لم يفرقوا بين علاقة الموهبة الشعرية بالموروث ولا بالأصالة ؛ بل وفاتهم أن جمال الصياغة ، واستقلال الشاعرية والصدق الفنى ينبغى أن يكون من الشاعر نفسه ، وعليه ألا يتحدث إلا فيما يؤمن هو به ، ويقتنع بقيمته اقتناعا تاما ، ويصدق فيه فيما بينه وبين نفسه ، والتعبير عنه فى أصالة وفى عمق بما تمتع به من ملكات وقدرات ؛ فالقضايا منكشفة ومدركة ؛ وإنما الشأن فى التناول وحسن الصياغة ، ودقة التعبير ؛ فالأسلوب هو الوجه المسفر عن صاحبه . وثمة فرق بين قدرتين مختلفتين قدرة أى إنسان على مجرد النظم ، وعبقرية الشاعر على جودة الصياغة . واستقلال الفن وصدقه ينبغي ألا يتناول الشاعر فيه موضوعا إلا وهو مقتنع بقيمته ومنفعل به ، ومعبر عنه فى أصالة بما له من ملكات ينفرد بها عمن سواه ، وتتوجه بها روحه الشاعرة ، وبفضله تكون ذاته - وليس سواها - هى المفكرة ، والمبدية لما فى الداخل ، والمبدعة للصياغة . وهذا هو مقياس الأصالة ، والصدق الفنى فى الرجوع للذات ، وليس لعبارات محفوظة ، وصيغ منقولة .

وافتقاد الشاعر للإحساس بالحضور الفنى أو الشعور بالحرية الذاتية للتعبير

عما فى النفس من أكثر معوقات شعراء تلك الفترة ؛ فشعر (الطباطبائى) ومعاصريه لم ينبع - فى أغلبه - من الداخل ؛ بل نتيجة اثر عارض خارج نطاق الذات ، وهذا ما أدى لخطورة التقييد للتقليد ، والحرص على التكلف ، وغلبة التّصنّع على الموهبة والفطرة السليمة .

كما أن جودة الصياغة المتميزة لم تجد صدى فى غالب أساليبهم ؛ مما أضعف إحساسهم الداخلى بأهمية الذات الشاعرة ، وحرية الإصدار عنها ، أو عن هموم الجماعة ، ولعل مما ساعد على ذلك انغلاق الذهن داخل إطار محدود تمثله ثقافة المتون والشروح والحواشى ومحكاة عصر الضعف ؛ على الرغم من تميّز (الطباطبائى) عن معاصريه بالاطلاع على بعض دواوين الأقدمين وتذوقه لأشعارهم ؛ فقد سئل ذات مرة عن معنى قول المتنبى : -

(بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتَمهُ

كيف أن أبا الفتح ابن جنى قرأ البيت على المتنبى بفتح تاء (خاتَمه) فقال له المتنبى :

أكسر التاء ؛ فرد أبو الفتح : الفتح أفصح فلفت المتنبى نظره إلى حركات ما قبل (الروى) فى القصيدة كلها فأدرك ابن جنى مراد المتنبى ؟

- فرد (الطباطبائى) بأن مقصد ابن جني : الأفصح الفتح اعتمادًا على أن خاتم تحمل الوجهين[1] مثل دانق ودانق بفتح النون وكسرها . ومراد المتنبى من الكسر ملاحظة ما قبل حركة الروى فى القصيدة كلها . ثم بين وجه ثناء (ابن جنى) على رأى المتنبى ؛ أن فى ملاحظة الكسر مزيد اقتدار

---

(١) اسم الفاعل بكسر التاء أما بالفتح فهو اسم للحلية التي تُلبس .

على الإتيان بتناسق حركات ما قبل الروى . ولم يفت (الطباطبائى) - وهذا هو المراد - إدراك خطإ فى رواية السائل لبيت المتنبى حيث أورده على هذا النحو (بكيت على ...) ؛ فقال للسائل : إن رواية البيت (بليت بلى) ولا يصح (بكيت على) لفساد المعنى[1] .

(٦)

إن طبيعة الشعر ، وشكله الجمالى لا تتأتى من (الفكرة) فى عالم التجريد ، وإنما تنطلق من (الصياغة) وبناء النص بناء لغويا محكم النسج حسن التصوير ، وهذا النظم الجيد يعد وعاء أو قالبا يستقبل الفكرة فى دلائلها الشعورية ، وما نشأ عنها من إعمال (الخيال) . من ثم فإن فكرة أى نص شعرى لا تتحدد إلا من خلال الصياغة التركيبية .

ومع ما للصورة من قيمة جمالية بوصفها إحدى الوسائل فى الكشف عن مواطن الجمال فى النص ، وتكثيف الفكرة ، وإعمال الخيال : فالصورة عنده تعتمد - فى أكثر حالاتها - شأن غالب الشعر القديم - على ألوان بيانية تحدها المجازات والتشبيهات والكنايات والأصباغ البديعية ، وهى صور تعتمد على البرهنات العقلية ، والمعانى الذهنية البعيدة عن التصوير الحسى الذى هو طبيعة الشعر . وشأن الصور الذهنية تناول مظاهر الأشياء والتوليدات العقلية الجافة البعيدة عن مجال التأثير النفسى .

إن **صورة الحبيب** وشكله من الصور المألوفة فى الشعر آثر تكرارها بالطريقة ذاتها ، وبالشكل المتعارف ؛ فغدائر المحبوب فى اسودادها ليل داج ، والفرق فى وسط الرأس فجر مضيء ، ورائحة أنفاسه فتيت مسك ، ونظراته سهام هوى ، والتفاتاته حركات ظبى ، وتثنيه - وقد ماست بالصبّا عذباته - كخطوط بان . . أما هو فمعذب بالصد والإعراض .

---

(١) الديوان ٢٤٦ - ٢٤٧ .

وتشيع الثقافة الفقهية فى الصورة لتز يدها تكلفا ؛ فلقد (تملك) المحبوب (رق) صاحبه ، والصاحب لا يبغي (عتقا) ولكنه ينادى : يا (مالكى) قدمت حسنك (شافعى) إلى آخر ما ينتظم الصورة فى قصيدته (ظبى الصريم) : -

وبديع حسنٍ فرعُه لك (آية) قد (أُرسلت) وحياته حيّاته
ما بينَ داجى فرعِهِ فرقٌ بدَا كضياء فجر زُحزحت ظُلماته

ويأتى الاستفهام ليوضح الحالة النفسية وما وما يعتمل فى الداخل من حيرة وتعجب ودهشة

أفتيتُ مسكٍ فاحَ من شفتيهِ أمْ بِرُضابِهِ عَبَقتْ لنا حبّاتُهُ ؟
مَن ذا سواهُ تخالهُ مهما مشى كالخوْطِ ماسِتْ بالصّبا عذَباته ؟

يا من (تملك) حسنه (رِقّى) وما
أنا مبتغٍ (عتقا) له حسناته
يا (مالكى) قدمتُ حسنَكَ (شافعى)
والمرء (أحمد) جاهه (زكواته)
مولَاى مُنَّ بوقفةٍ لي ساعةً
لأُبثّ شوقا لاتنى حملاته[1]

وإذا كانت وظيفة الصورة ومغزاها التمثيل الحسى للتجربة الشعرية وللعواطف والأفكار فإن التصوير ثَمّ لا يتعدى تشبيهات بين أمور حسية لجامع بين الطرفين دون ربط هذا التشبيه بجوهر الشعور والفكر فى الغرض الأدبى ، ولا يُلمح الترابط الجيد بين الشعور والأثر فى صوره ، أو وجه من وجوه التوافق النفسى مما قلل من قيمة الصور ، وأفقد معظمها الصدق الفنى ، وأخرجها فى إطار مستهلك ؛ فالتنظير الحسى والمشابهة الظاهرية لا

---

(١) الديوان ٢٢٣ .

تتصل بشعور محدد ، ولا بفكر عميق ، كما أنه لا يطبع فى وجدان المتلقى أثرًا عما هو فى وجدان الشاعر ، ولا ينقل شعورا من نفس إلى نفس فى نحوه قوله :

رعى الله أوقات السرور التى مضت
لليلات صفو عاريات الشوائب
بها حزت آمالى ، وما كنت راجيا
من القرب من حسناء هيفاء كاعب
رصوف أنوف ناهد غادة رمت
بسهم من الألحاظ للصب صائب
من الخفرات الغر غنجاء بضة
بديعة حسن من بنات الأعارب
لغُرتها لألاء من تحت طُرة
كبدر تبدى من سجوف الغياهب
لها مبسم ألمى شهى معسّل
بحسن حديث ساحر القلب سالب[1]

أما صورة الممدوح فجاءت هى الأخرى وصفا للجوانب النفسية من شجاعة منقطعة النظير ، وإقدام فى جرأة ، وعقل ورزانة وحكمة ، والممدوح عنده ألمعى تزهو به الدنيا ، وهو (سهم إن ملّ الوغى أسد الشرى) وهو الباسل القيدوم ، وله السبق فى غايات مجد وسؤدد ، وله همم تقصر دونها كل همة . . . إلخ على نحو ما نجده فى قصائد مدح السيد (سعيد بن سلطان[2] وصور الفارس كثيرة ومتنوعة ، والممدوح شمس وإمام علم .

---

(١) الديوان : ٣ .

(٢) الديوان : ٣٤ - ٣٦ .

وصور الطبيعة تكثر فى شعر الوصف على نحو ما جاء فى تصويره لعين (برابر) بالحسا يتناول وصف النخيل والحدائق المتنوعة والمياه الصافية :

على صفحات النهر منها بواسق بها الطلع منضود وما ثم حاسر
حدائقهـا فيها الثمار يوانـع لدانى جناها تشرئب الخواطـر

وهكذا جاءت صور أخرى مثل صور الأئمة والمصلحين فهم بهاليل وشموس يحمون الذمار . وجاءت الصور البلاغية عقلية وذهنية بعيدة عن مجالات الحس الذى هو طبيعة الشعر ؛ فطبيعة الصور الذهنية تناول مظاهر الأشياء والتوليد العقلانى الجاف ، وهذا ما جعل الصورة فى شعره بعيدة عن الحركة والتعمق والاتساع والنفاذ لجوهر الأشياء حتى يمكنها استيعاب كل العناصر والأشياء .

كما أن غالبها مكرر ، لا يستأثر القارئ لكثرة استخدامها . وهى بحال لا تتعدى التجسيم . وغالبا ما تعتمد على (التشبيه) دون غيره ، وهى مجرد جميع بين أمور حسية ملموسة لا تنفذ للمشاعر ، ولا تتعمّق فكرا ؛ لأنها مفككة الصلة بعيدة التناسق ؛ بل ينتقل من تصوير لآخر انتقالا مفاجئا . ويرجح تذبذب الصور واضطرابها فى أكثر من قصيدة مما يؤكد مدى التفاوت بين شعر الشباب عنده وشعر الجودة والاكتمال .

وشاع فى مقدمات بعض قصائدة ألفاظ دالة على الغزل كالحب والوجد والفراق واللواعج والأشواق والمكابدة وتوقد النار والبعد والهوى والصبابة ، وألفاظ دالة على الثقافة اللغوية النحوية كالرفع والنصب ، كما شاعت ألفاظ فقهية فى شعر الحكم والإرشاد ، وألفاظ تراثية على نحو قوله : -

أطعِ الربَّ إنْ طلبتَ رِضاهُ وعن البَغْى والمناكـرِ أمْسكْ
وليكن يومُك الذى أنتَ فيه فائقا للتقى صحيفـة أمْسِك
خالعا رِبقَة الهَوى وابتـداعٍ وعُرَى (السّنة) النقية أمْسكْ

فقد التزم كلمة (أمسك) مما كان يراه براعة لغوية . وفيما كانت ثقافته

الدينية تتراءى عن قرب كان شعره التعليمى يعرض لبعض معانى القرآن والحديث مثلما كان رده عن السائل :

سألتَ عن (الماعون) فى الآيةِ التى
قرأت فخذْ منى جوابًا محررًا
ثلاثة أقوال بتفسيره أتت
زكاة كذا ما يستعيرونه الورى

وجاءت قصائده موزعة على بعض البحور الشعرية الخليلية المتداولة بكثرة ، وهى من أوزان البحور المسماه (القومية)[1] التى شاعت وكثر استخدامها فى الشعر العربى فى جميع عصوره ؛ فالبحر الطويل اختص بالنَّصيب الأوفى من شعره ثمانى عشرة قصيدة ، ويليه البحر الكامل وجاء عليه عشر قصائد فالوافر ٩ قصائد فالبسيط ٨ قصائد ثم الرجز ست قصائد ، والخفيف قصيدتان ، وكل من السريع والمتدارك قصيدة واحدة .

والبحر الطويل من البحور رباعية التفاعيل المزدوجة وجاء عليه ثلث الشعر العربى[2] ، وهو من المقايس الشعرية المعروفة ، ويجئ الكامل وهو مقياس واحد متفاعلن ، ثم الوافر . . وكلها بحور كثيرة المقاطع ، وقد استغلها الشاعر للوقوف على ما كان يراه العرب من نغم مطرب وشجى فى الحالات المهمة ، والمواقف العصبية .

على هذا جاء نهج (الطباطبائي) رتيبا ضعيفا . وقد اقتضى الأمر الوقوف عنده لنقل خبرته ، ولتلمس أثره فى المنطقة وهو أثر لا يتعدى التمهيد ، والولوج للشعر الفصيح ، ولا يتجاوز موقعه ذلك إلى البعث والإحياء الذى يقتضى بعث اللغة الفصحية والأسلوب القديم ، وتصوير الشاعر لنفسه ولمجتمعه .

---

(١) أنيس الدكتور (إبراهيم) موسيقى الشعر العربي ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٢٠٧ .

..... وبعد ...

فلعل فى هذه الإضاءت ، وتلك الوقفات ما يجلي بعض الجوانب ، ويحدّد الأبعاد ، ويلتفت إلى أثرٍ من آثار شعراء العربية فى عصر النهضة الحديثة .

* * *

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

١ - ديوان السيد عبد الجليل الطباطبائى - القاهرة سنة ١٣٨٥هـ المطبعة السلفية

٢ - لوريمر (ج . ج) دليل الخليج - القسم التاريجى ج٢

ثانيا : المراجع :

١ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) : وفيات الأعيان ج١ .

٢ - أنيس (الدكتور إبراهيم) موسيقى الشعر سنة ١٩٦٥ دار القلم .

٣ - الدسوقى (الأستاذ عمر) : فى الأدب الحديث ج١ - القاهرة سنة ١٩٧٠م - دار الفكر العربى .

٤ - الرشيد (الشيخ عبد العزيز) : تاريخ الكويت طبعة دار مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٦٣م .

٥ - الزيد (خالد سعود) : أدباء الكويت فى قرنين ج١ - الكويت سنة ١٩٦٧ - الطبعة (١) .

٦ - السجاري (مشاري عبد الله) : الشعر الحديث فى الكويت إلى سنة ١٩٥٠ - الكويت سنة ١٩٧٨ - الطبعة(١) .

٧ - الصباح (الدكتورة عواطف) الشعر الكويتي الحديث - الكويت سنة ١٩٧٣ - المطبعة العصرية .

٨ - عبد الرحمن (الدكتور إبراهيم) مقال مجلة البيان الكويتى عدد ٦٧ص ٣٤ - أكتوبر سنة ١٩٧١م .

٩ - العقاد (عباس محمود) - شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى - القاهرة سنة ١٩٧٣م .

١٠ - العلي (أحمد محمد عبد الله) شعر صقر الشبيب - الكويت ١٩٨٦ - الطبعة الأولى - دار السلاسل .
١١ - الفصول : مجموعة مقالات أدبية واجتماعية وخطرات وشذور - بيروت - دار الكتاب العربى للأستاذ العقاد .
١٢ - فهمى (الدكتور ماهر حسن) تطور الشعر العربى الحديث بمنطقة الخليج - قطر سنة ١٩٨٥ - دار قطرى بن الفجاءة - الطبعة الأولى .
١٣ - قافود (الدكتور محمد عبد الرحيم) : الأدب القطرى الحديث - قطر سنة ١٩٨٢ - الطبعة الثانية .
١٤ - الوقيّان (الدكتور خليفة) القضية العربية فى الشعر الكويتى .

* * *